THE BOOK WAS DRENCHED

النبي

لجبران خليل جبران

وضعه باللغة الانكليزية وقد ترجمه الى العربية

الارشمندريت انطونيوس بشير

ان جميع كتابات جبران تدعو الى التفكير العميق . فان كنت تخاف ان تفكر فالاحذر لك الا تقرأ جبران

عنى بنشره

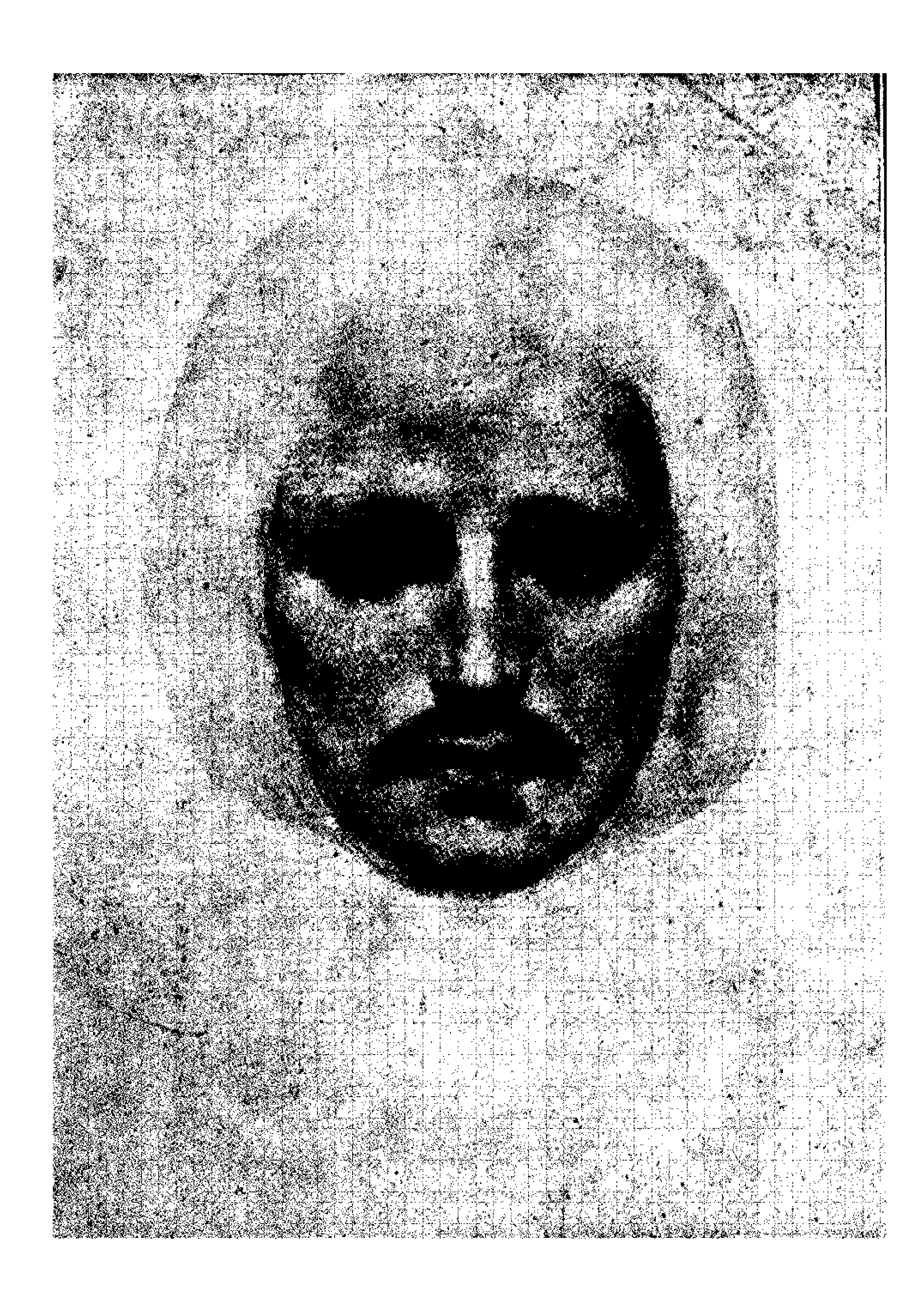
يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب بالفجالة بمصر

الطبعة الاولى

المطبعة الرحمانية بمصر

١٩٢٦



كلمة المترجم

لو قصرنا الدين على أثوابه الخارجية لكان جبران كافراً وكان المترجم هذا الكتاب مخطئاً في نقله إلى العربية — وإن كان ناقل الكفر ليس بكافر . ولكن لو نظرنا في الدين إلى جوهره دون قشوره ، لرأينا أن جبران في طليعة المؤمنين العاملين على نشر الحقيقة الأزلية مجرّدة عن زخرف الوهم وبهرجة الرسم ، متحلّية بجلباب فتان من الفن الخالد .

في العقائد والمذاهب المنتشرة في العالم اليوم ، كما في جميع نُظُمِهِ الاجتماعية . قشورٌ يابسة ممتلئة من سوس الماضي تكاد تقضي على البقية الباقية من الألباب في هذه العقائد والمذاهب . فهنالك أنصارُ الحرف القاتل الذين يؤلفون الأكثرية الساحقة بين ذوي الشرائع يحاربون الروح المجددة بكل مالديهم من آلات الحرب والشرّ التي ورثوها عن

جدودهم الغيُر على فريسيَّة الناموس والأنبياء . هؤلاء هم أبناء ظلمة الأمس يقضون أعمارهم متمسكين بأهداب الشريعة الصّماء . وان كانت الشريعة تقتل أرواحهم وتعمل على قهرهم وجمودهم ومذلتهم . وهنالك أنصارُ الروح المحيية الذين يؤلفون الأقلية الصُّغرى فى الناس يحاربون جيوش الظلمة ويحسرون القناع عن وجه الحقيقة بكل ماأُوتوا من حكمة ومعرفة . هؤلاء هم أبناء نور الغد يحترمون الشريعة بمقدار ماتحترم الشريعة الحياةَ التى فى قلوبهم . ويضربون بها عرض الحائط اذا كانت تغلُّ إرادتهم وتثقل كاهلهم بنير الجهل والغباوة .

والأديبُ المجدد . الذى دُعى بحق نابغة المهجر ورسول الشرق إلى الغرب . جبران خليل جبران مؤلف هذا الكتاب هو فى مقدمة أنصار الروح هؤلاء . ولذلك يسرنى أن أقدّم إلى قراء العربية المفكرين خلاصة أفكاره وآرائه فى أسرار الحياة من المهد إلى اللحد . مجموعة فى هذا الكتاب الصغير الطافح بثمرات نبوغهِ وعبقريتهِ .

رجل ، إن فى أعماق جبران نفساً تطمح الى الجديد المفيد ، وتنفر من كل تقليد بليد ، فهو لا يكتب إلا مايعتقده حقاً وصواباً ، ولذلك تأتى كتابته مرآة نقية تعكس شخصية كبيرة تأبى أن تتقيّد بقيود الماضى أو أن تلبس حلة غير حلتها ، بيد أن هذه الشخصية الممتازة قد ظهرت فى أوج عظمتها وكمال روحانيتها فى هذا الكتاب الذى أودعه المؤلف خلاصة آرائه فى الحب والزواج ، والأولاد . والبيوت والثياب .والبيع . والشراء . والجرائم . والعقوبات . والحرية والشرائع . والعقل . والهوى . والإثم . والصداقة . والدين والموت . وغير ذلك ، على لسان نبى سمّاه المصطفى . وكأننا بالمؤلف قضى حياته يستعد لاخراج هذا السفر النفيس ، فان كتبه السابقة من عربية وانكليزية ليست سوى مقدمات لما فى هذا الكتاب من حكمة ، وفلسفة ، وشعر وفن . فلا ترى فيه جبران الثائر الذى تراه فى العواصف (والارواح المتمردة) ، ولا جبران الشاعر الذى تراه فى « أيتها الارض » و « أيها الليل » وغيرهما ، ولا جبران المتألم فى « لكم

لبنانكم ولى لبنانى » ، وفى صورة « وجه أمّى وجه أمّتى » ولا جبران المعلم الحكيم فى « القشور واللباب » (والمجنون والسابق) ولا جبران الرسام الرمزى فى جميع ما أبرزته ريشته الساحرة ، ولا جبران الخيالى فى بين ليل وصباح ، وفى حفّار القبور ، بل ترى فى هذا الكتاب جبران الذى هو مزيج من هذه العناصر جميعها ، بل هو خلاصتها المختارة . فانك لا تقرأ فصلاً من فصوله الا وترى أمامك حكمة من خيال وفلسفة فى بلاغة وجمال [1]

قال أحد كبار المفكّرين الغربيين ، « أن جبران حدث فى العمر ولكنهُ شيخ فى الحياة . فهو كالاحداث توّاق للجمال وكالشيوخ متعشق للحكمة والحقيقة . فكأنما به يقول ، سأدرك جميع الحقائق . سأعرف ما لا يوجد ناقصاً فى الموازين ، سأبكى مع الباكين . وسأضحك مع الضاحكين ، سأسيح فى جميع الفصول ، وحيثما سرت سأهتدى الى محجتى .

وقال آخر « ليس فى حياة جبران من أثر للتقليد

(١) المقتطف

أو الجمود ، فلا هو بالمتفائل ، ولا بالمتشائم ، ولا هو بالكاهن ولا بالكافر . بيد أنهُ بالحقيقة نبي بعيد النظر . مترنم أبداً بأناشيد الفن الخالدة . ولعلّهُ يرى بعينيهِ الشرقيتين ما لا تتاح لنا رؤيتهُ نحن أبناء الغرب ، ولا غروَ ، فان معلمي الانسانية جاءوا دائماً من الشرق ! »

وقال أديبٌ آخر : « إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق ، بل ترغمُ قارئها إلى إعمال ذهنهِ وعقلهِ . فان كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألاّ تقرأ جبران » .

وقال غيرهُ : « نحن نعتقد أن مؤلفات جبران بستان خالدٌ ممتلئ بأثمار الغبطة والبهجة . بل هو جنة نور عجيب لا يعثر فيها حتى أعداء الحقيقة أنفسهم .

وقال آخر : ان جبران قد اقترب من الغرب ، وعلى شفتيهِ ابتسامة الشرق الجميلة ، يحمل عطيةً ثمينة في صدرهِ لكي يقدمها إلى الغرب . فقد جاء كالمسيح يطفح قلبهُ محبةً »

وقال أوغست رودين أعظم نحّاتي العصر الحاضر بعد أن عرف جبران عند ما كان يعرض صورهُ في باريس ،

« أن العالم يجب أن ينتظر كثيراً من شاعر لبنان ونابغتهِ جبران · فهو وليم بلايك القرن العشرين !

هذا قليل من كثير مما لدينا من أقوال علماء الغرب فى مؤلف « النبي » رأينا أن نثبتهُ لأبناء الشرق لكى يعرفوا أن الغرب يقدر النابهين من رجال الشرق قدرهم وينزلهم منزلتهم من الاعتبار . وربما كانت هذه أبرز ميزات الغرب على الشرق فى استثمار مواهب الناس .

ولابدَّ لنا قبل الفراغ من كلمتنا هـذه أن نلفت أَنظار القراء الكرام إلى الملاحظات التالية .

(١) جبران يصوّر فكرهُ قبل أن يعبّر عنهُ بالألفاظ ، لأنهُ من نوابغ المصورين ، لذلك فَلْيُعْنَ القارئ بدرس صورة كل فكر من أفكار المؤلف قبل أن يدرس الألفاظ التى تعبر عنها .

(٢) جبران مفكّر عميق وشاعر غير مخيَّر فى شاعريتهِ ، فكل عبارة تخرج من شفتيهِ ملؤها الفكر والشعر .

فاذا لم تشاطر جبران شعوره، وتصبغ فكرك بصبغة فكرهِ فعبثاً تحاول أن ترافقه في سياحاتهِ

(٣) ليس جبران كافراً، بل هو مؤمن صادق في دينهِ وهو يعتقد أن الدين كل ما في الحياة من الأعمال والتأملات وربما كان الفرق بين دينهِ ودين الذين يرشقونه (بالحرم الثقيل) كالفرق بين دين يسوع ودين الكتبة والفريسيين المرائين الذين كانوا يقولون إن فيهِ شيطاناً :

(٤) رأينا أن نثبت في ترجمة « النبي » العربية الرسوم الاثني عشر التي رسمها المؤلف للأصل الأنكليزي « وللهِ هذه الرسوم البديعة التي لا بدَّ منها لاكمال الكتاب. فالصورة الأخيرة من أروع ما تصوَّر بهِ القوة المدبرة التي وراء هذا الكون — يدٌ تعمل، وبصيرة ترى، وحولها العوالم صنعها في حلقات متراكزة » . ومع أن هذا النوع من التصوير الرمزي جديدٌ في العالم العربي فانه أجمل ما تزيَّن بهِ المتاحف ودور العلم وبيوت العبادة في العالم المتمدن . لذلك

فلينظر القارئ إلى الحقيقة التي يرمز إليها كل رسم من هذه الرسوم قبل أن يقصر نظره على الرسم نفسه .

(٥) ليس « النبي » رواية أو حكاية يكفي أن يمرّ بها القارئ ليدرك فحواها ، ويفهم الحقيقة المنطوية عليها ، ولكنه دائرة علم ، وأدب ، وفن ، وحكمة ، وفلسفة . فلا تترك عبارة من عباراته قبل أن تقف على الحقيقة التي وراءها . وتتفهم العقيدة الجديدة التي تحملها إليك ، فان جاءت مثبتة لما لديك فاقتبلها واحتفظ بها . وان جاءت غريبة عما عرفته وألفته فلا ترفضها بل ضعها في دائرة من ذاكرتك ثم عد إليها بعد حين متذكراً أن الذين اضطهدوا غاليلو واحتقروا آراءه الغريبة ما كانوا ليضطهدوه لو عاد وعادوا إلى الحياة اليوم :

الارشمندريت انطونيوس بشير

أميركا الشمالية

النـــــبى

وظلّ المصطفى ، المختار الحبيب ، الذى كان فجراً لذاته ، يترقبُ عودة سفينتهِ فى مدينة أورفليس اثنتى عشرة سنة ليركبها عائداً الى الجزيرة التى وُلِدَ فيها .

وفى السنة الثانية عشرة ، فى اليوم السابع من ايلول ، شهر الحصاد ، صعد الى قنة أحـدى التلال القائمة وراء جدران المدينة وألقى نظرة عميقةالى البحر ، فرأى سفينتهُ تمخُر عبابَ البحر مغمورة بالضباب .

فاختلج قلبهُ فىأعماقهِ ، وطارت روحهُ فوق البحر فرحاً فأغمض عينيهِ ، ثم صلى فى سكون نفسهِ .

* * *

غير أنهُ ماهبط عن التلّة حتى فاجاءتهُ كآبةصماء ، فقال فى قلبهِ :

كيف أنصرف من هذه المدينة بسلام، وأسير في البحر من غير كآبة؟ كلا، أنني لن أبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحي.

فقد كانت أيام كآبتي طويلة ضمنَ جدرانها، وأطول منها كانت ليالي وحدتي وانفرادي، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبتهِ ووحدتهِ من غير أن يتألم في قلبهِ؟

كثيرةٌ هي أجزاء روحي التي فرقتُها في هذه الشوارع، وكثير هم أبناء حنيني الذين يمشون عراةً بين التلال، فكيف أُفارقهم من غير أن أُثقل كاهلي وأضغط روحي!

فليس ما أفارقهُ بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم ارتدي به غداً، بل هو بشرةٌ أمزقها بيدي.

كلا. وليس فكراً أخلفهُ ورائي، بل هو قلبٌ جمَّلَتْهُ مجاعتي وجمالهُ عطشي رقيقاً خفوقاً.

بيد أَنى لا أستطيع أَن ابطئَ فى سفرى .

فان البحر الذى يدعو كل الأشياء إليه يستدعينى ، فيجب علىَّ أن أركب سفينتى وأسير فى الحال إلى قلبه .

ولو أقمتُ الليلة ههنا ، فانى . مع أن ساعات الليل ملتهبة . أَجمد وأتبلور . وأتقيَّد بقيود الأرض الثقيلة .

وإنى أودُّ لو يُتاح لى أن يصحبنى جميع الذين ههنا . ولكن أنّى يكون لى ذلك ؟

فان الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللواتى تسلحن بجناحيه . ولذلك فهو وحدَهُ يخترق حُجُبَ الفضاء .

أجل ، والنسرُ ، ياصاح ، لا يحمل عشهُ بل يطير وحدهُ محلقاً فى عنان السماء .

*
* *

وعند ما بلغ المصطفى الى سفح التلة ، التفت ثانيةً إلى البحر ، فرأى سفينتهُ تدنو من المرفإِ ، وابناء بلاده يروحون ويجيئون على مقدَّمها .

فهتف لهم من صميم فؤادهِ وقال :

يا أبناءَ أمتى الأولى أيها الراكبون متون الأمواج ، المذلّلون مدّها وجزرها .

كم من مرةٍ أبحرتم فى أحلامى . وها قد أتيتم ورايتكم فى يقظتى التى هى أعمق أحلامى .

إننى على أتم الأهبة للإبحار ، وفى أعماق شوق عظيم يترقب هبوب الريح على القلوع بفارغ الصبر .

ولكننى اودّ ان أتنفس مرةً واحدةً فى هـذا الجو الهادئ ، وان أبعث بنظرة عطف واحدة الى الوراء .

وحينئذ أقف معكم ، ملاّحاً بين الملاحين .

أما أنت أيها البحر العظيم ، أيها الأمُّ الهاجعة .

أنت أيها البحر العظيم الذى فيك وحدك يجد النهرُ والجدولُ سلامهما وحريتهما .

فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد ، ولن يسمع أحدٌ خريرَهُ على هذا المعبر بعد اليوم ، وحينئذ



صفحة ١٤

آتى اليك ، نقطةً طليقةً إلى أوقيانوس طليق .

*
* *

وفيما هو ماش رأى عن بُعدٍ رجالاً ونساءً يتركون حقولهم وكرومهم ويهرولون إلى أبواب المدينة .

وسمعهم يصرخون بعضهم ببعض من حقل إلى حقل مرددّين اسمَهُ وكلٌّ منهم يحدّث رفيقهُ بقدوم سفينتهِ .

*
* *

فقال في نفسهِ :

أيكون يوم الفراق يوم الاجتماع ؟

أم يجرى على الأفواه أن مسائى كان فجراً لي ؟

وماذا يجدرُ بى أن أقدم للفلاح الذى ترك سكّتهُ فى نصف ثلمهِ ، وللكرّام الذى أوقف دولاب معصرتهِ ؟

أيتحول قلبي إلى شجرة كثيرة الأثمار فاقطف منها واعطيهم ؟

أم تفيض رغباتى كالينبوع فاملأ كؤوسهم ؟

هل أنا قيثارة فتلامسنى يدا القدير ، أم أنا مزمار فتمر بى أنفاسه ؟

أجل ، إننى هائم أنشد السكينة ، ولكن ماهو الكنز الذى وجدته فى السكينة لكى أوزعه بطمأنينة ؟

وان كان هذا اليوم يوم حصادى ، ففى أية حقول بذرت بذارى . وفى أى فصل من الفصول المجهولة كان ذلك ؟

وان كانت هذه هى الساعة التى يجدر بى أن أرفع فيها مصباحى واضعاً إياه على منارتى ، فان النور الذى يتصاعد منه ليس منى :

لأنى سأرفع مصباحى فارغاً مظلماً .

ولكن حارس الليل سيملأه زيتاً ، وسينيره أيضاً .

*
* *

قال هذا معبراً عنه بالألفاظ . ولكن كثيراً مثل هذا

حفظهُ فى قلبهِ من غير أن يُعلنهُ . لأنهُ هو نفسهُ لم يقــدر
ان يوضح سرّهُ العميق .

*
* *

وعند ما دخل المدينة استقبلهُ الشعب بأسرهِ ، وكانوا
يهتفون لهُ مرحبين بهِ بصوت واحد .

فوقفهُ شيوخ المدينة وقالوا لهُ :

ربك لا تفارقنا هكذا سريعاً .

فقد كنتَ ظهيرةً فى شفقنا ،

وقد أوحى شبابك الأحلام فى نفوسنا .

وانت لست بالغريب بيننا ، كلا ، ولا انت بالضيف ،
بل انت ولدنا وقسيمُ ارواحنا الحبيب .

فلا تجعل عيوننا تشتاق الى رؤيةوجهك .

*
* *

ثم قال لهُ الكهان والكاهنات :

لا تأذن لأمواج البحر أن تفصل بيننا ، فتجعل الاعوام التى قضيتها بيننا نسياً منسياً .

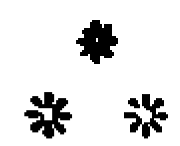
فقد كنت فينا روحاً محيية ، وكان خيالُك نوراً يشرق على وجوهنا .

قد تعشقتك قلوبنا ، وعلقتك ارواحنا ،

ولكن محبتنا تقنّعت بحُجُب الصمت ، فلم نستطع ان نعبّر عنها .

بيد انها تصرخ اليك الآن بأعلى صوتها ، وتمزّق حُجُبها بيديها ، لكى تظهر لك حقيقتها .

فان المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها الا ساعةَ الفراق .



ثم جاءَ اليهِ كثيرون متوسلين متضرعين . فلم يردَّ على أحدٍ جواباً . ولكنهُ كان يحنى رأسهُ ؛ وكان الواقفون حولهُ ينظرون عبراتهِ تتساقط بغزارةٍ على وجنتيهِ وصدرهِ .

وظل يمشي مع الشعب حتى وصلوا الى الساحة الكبرى أمام الهيكل

* * *

وحدث اذ ذاك ان امرأة عرافة خرجت من المقدس ، اسمها ألمِطْرة .

فنظر اليها نظرة ملؤها الحب والحنان ، لأنها كانت أول من سعى اليهِ وآمن بهِ مع انهُ لم يكن لهُ الا ليلة وضحاها في مدينتهم .

فحيتهُ باحترام وقالت لهُ :

يا نبي الله ، قد طالما كنت تسعى وراء ضالتك المنشودة، مفتشاً عن سفينتك التي كانت بعيدةً عنك .

وها قد وصلت سفينتك ، ولم يبق من بدٍّ لسفرك .

عظيمٌ هو حنينك الى أرض أحلامك وتذكاراتك ومواطن الفائقات من رغباتك ، ولذلك فان محبتنا لا تقيدك ، وحاجتنا اليك لا تُمسك بك .

ولكننا واحدةً نسألك قبل أَن تفارقنا :

أَنْ تخطب فينا وتعطينا من الحق الذى عندك .

ونحن نعطيهِ لأولادنا ، وأولادنا لأولادهم وأحفادهم ،

وهكذا يثبت كلامك فينا على ممرّ العصور .

ففى وحدتك كنت ترقب أَيامنا ، وفى يقظتك كنت

تصغى الى بكائنا وضحكنا فى غفلتنا .

لذلك نضرع اليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا ،

وتخبرنا بكل ما أُظهرَ لك من أسرار الحياة من المهد الى اللحد

فأجاب قائلا :

*
* *

يا أَبناءَ اورفليس ، بماذا احدثكم ان لم أُظهر لكم

ما يختلج فى نفوسكم وتتحركُ بهِ ضمائركم حتى فى هذه

الساعة ؟

*
* *

حينئذ قالت لهُ أَلمِطَرة ، هات لنا خطبةً فى المحبة .

فرفع رأسهُ ونظر الى الشعب نظرة محبة وحنان ،
فصمتوا جميعهم خاشعين . فقال لهم بصوت عظيم

اذا أشارت المحبة اليكم ، فاتبعُوها ،
وإنْ كانت مسالكها صعبةً متحدّرة .
واذا ضمّتكم بجناحيْها ، فأطيعوها ،
وانْ جرحكم السيفُ المستورُ بين ريشها .
واذا خاطبتكم المحبة : فصدقوها .
وإنْ عطل صوتها أحلامكم وبدّدها كما تجعل الريح الشمالية البستان قاعاً صفصفا

*
* *

لانهُ كما ان المحبة تكللكم ، فهي أيضا تصلبكم .
وكما تعمل على نموّكم ، هكذا تعلّمكم وتستأصل الفاسد منكم .
وكما ترتفع الى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة امام وجه الشمس ،

هكذا تنحدرُ الى جذورها الملتصقة بالتراب وتهزُّها
في سكينة الارض

*
* *

المحبة تضمكم الى قلبها كأغمار الحنطة .
وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم .
وتغربلكم لكي تحرّركم من قشوركم .
وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياءَ كالثلج .
وتعجنكم بدموعها حتّى تلينوا ،
ثم تعدكم لنارها المقدسة ، لكي تصيروا خبزاً مقدساً
يقرب على مائدة الرب المقدسة .

*
* *

كل هذا تصنعهُ المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم ،
فتصبحوا بهذا الادراك جزءاً من قلب الحياة

*
* *

غير انكم اذا خفتم ، وقصرتم سعيكم على الطمأنينة واللذة فى المحبة :

فالاجدر بكم أن تستروا عريكم وتخرجوا من بيدر المحبة ، الى العالم البعيد حيثما تضحكون ، ولـكن ليس كل ضحككم ، وتبكون ، ولكن ليس كل ما فى مآقيكم من الدموع .

*
* *

المحبة لاتعطى الا نفسها ، ولا تأخذ الا من نفسها .
المحبة لاتملك شيئاً ، ولا تريد ان يملكها احَد :
لان المحبة مكتفية بالمحبة .

*
* *

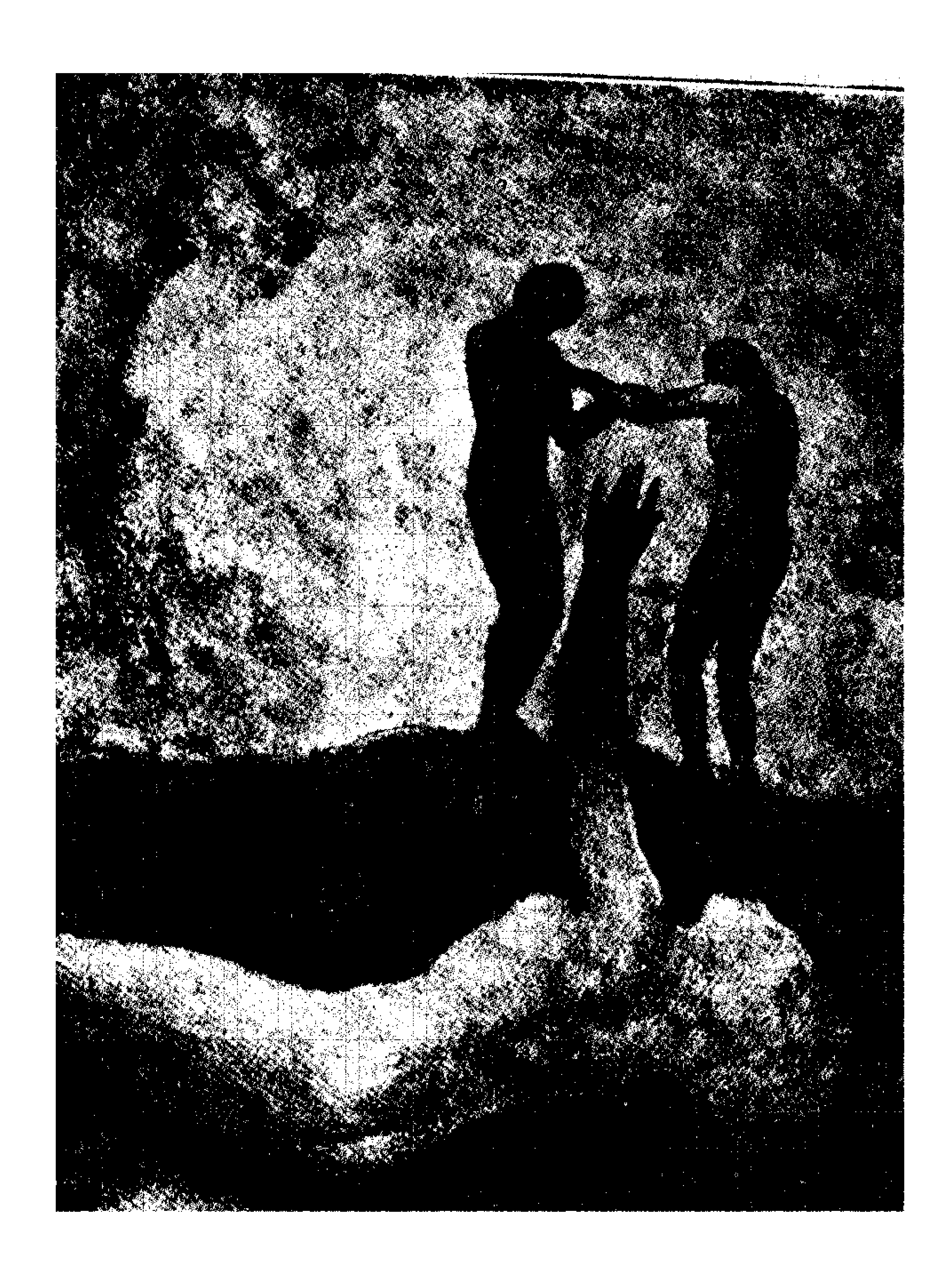
اما أَنت اذا أَحببت فلا تقل ، « ان الله فى قلبى » ، بل قُلْ بالاحرى ، « انا فى قلب الله » .

ولا يخطر لك البتة انك تستطيع أن تتسلط على مسالك

المحبة ، لان المحبة ، ان رأت فيك استحقاقاً لنعمتها ، تتسلط هي على مسالكك .

* * *

والمحبة لارغبةَ لها الا فى أَن تكمل نفسها ،
ولكن اذا أَحببت ، وكان لابد من أن تكون لك رغباتٌ خاصة بك ، فلتكن هذه رغباتك .
أَن تذوبَ وتكون كجدول متدفق يشنف آذان الليل بانغامهِ .
أَنْ تخبُرَ الآلام التى فى العطف المتناهى .
أَنْ يجرحك ادراكك الحقيق للمحبة فى حبة قلبك :
وأَن تنزف دماؤك وانت راض مغبوط .
أَن تنهض عند الفجر بقلب مجنَّحٍ خفُوق ، فتؤدى واجب الشكر ملتمساً يومَ محبة آخر
أَن تستريحَ عند الظهيرة وتناجى نفسك بوَجدِ المحبة :
أَن تعود الى منزلك عند المساء شاكراً :



صفحة ٣٥

فتنام حينئذ والصلاة لأجل من أحببت تترددُ في قلبك وانشودة الحمد والثناء مرتسمة على شفتيك

ثم قالت له المطرة ثانية ، وما رأيك في الزواج أيها المعلم؟

فأجاب قائلاً :

قد وُلدتم معاً ، وستظلون معاً الي الأبد .

وستكونون معاً عندما تبدد أيامكم أجنحة الموت البيضاء .

أجل ، وستكونون معاً حتى في سكون تذكارات الله .

ولكن فليكن بين وجودكم معاً فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض ، حتى أن أرياح السماوات ترقص فيما بينكم

أحبوا بعضكم بعضاً ، ولكن لا تقيّدوا المحبة بالقيود بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم .

املأوا كل واحد منكم كأس رفيقهِ ، ولكن لا تشربوا من كأس واحدة .

أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقهِ ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد .

غنوا وارقصوا معاً ، وكونوا فرحين أبداً ، ولـكن فليكن كل منكم وحدهُ ،

كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحدهُ ولـكنها جميعا تخرج نغماً واحداً .

* * *

أعطوا كلٌ منكم قلبهُ لرفيقهِ ، ولـكن حذارِ أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ .

لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم .

قفوا معاً ولـكن لا يقرُبْ أحدكم من الآخر كثيراً :

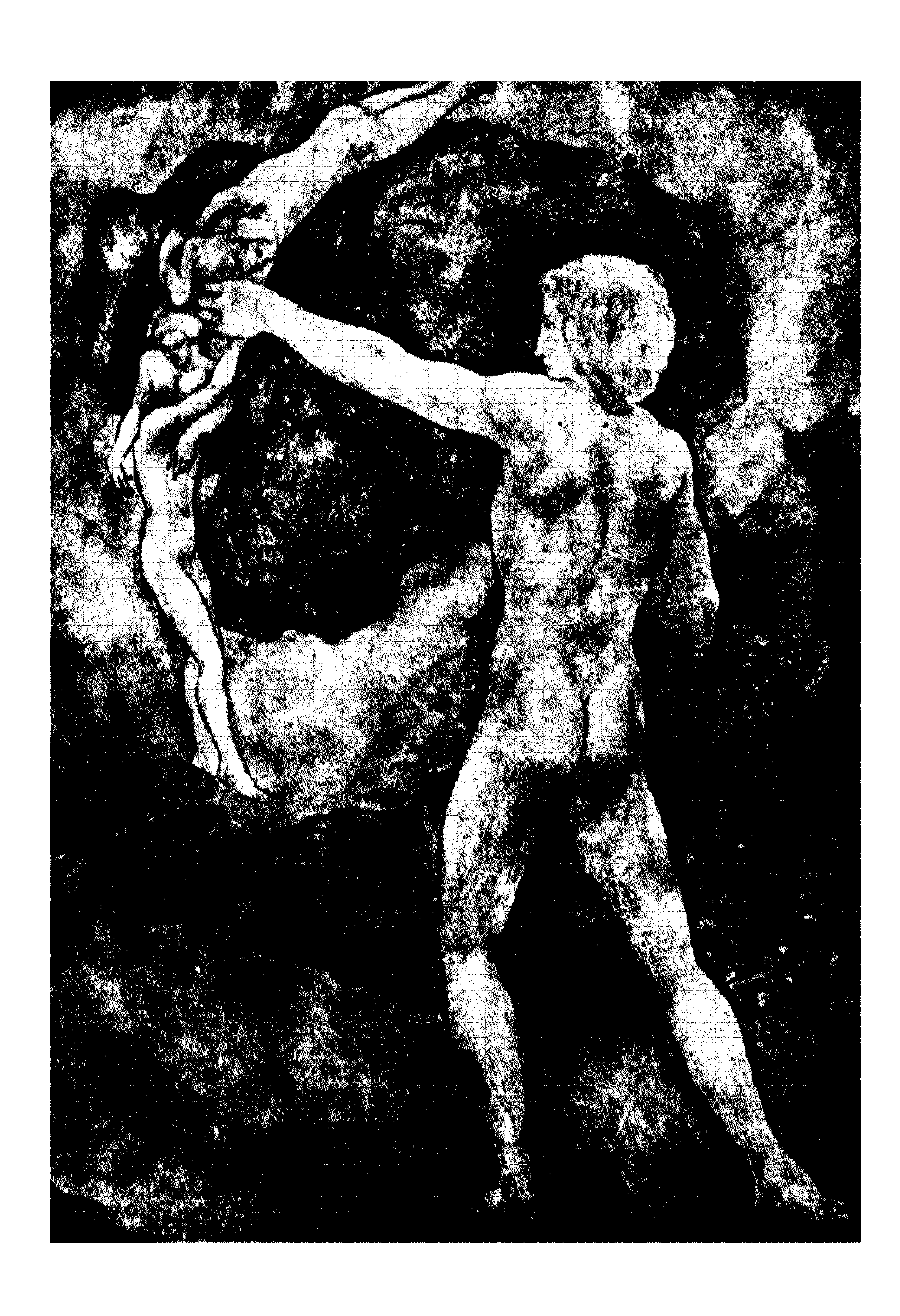
لأن عمودَى الهيكل يقفان منفصلين ،

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما فى ظل رفيقتها.

ثم دَنَتْ منهُ امرأة تحمل طفلها على ذراعيها وقالت لهُ هات حدثنا عن الاولاد .

فقال :

ان أولادكم ليسوا أولاداً لـكم .



صفحة ٢٧

انهم ابناء وبنات الحياة المشتاقة الى نفسها ، بكم يأتون الى العالم ولـكن ليس منكم ؛

ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لـكم .

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولـكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم ، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم .

وفى طاقتكم أن تصنعوا المساكن لاجسادهم ،

ولـكن نفوسهم لا تقطن فى مساكنكم ،

فهى تقطن فى مسكن الغد ، الذى لا تستطيعون أن تزوروهُ ولا فى احلامكم .

وان لـكم ان تجاهدوا لـكى تصيروا مثلهم ،

ولـكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم .

لأن الحياة لا ترجع الى الوراء ، ولا تلذ لها الاقامة فى منزل الامس .

أنتم الأقواس وأولادكم سهام حية قد رمت بها الحياة عن أقواسكم .

فان رامى السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية ، فيلويكم بقدرتهِ لكي تكون سهامهُ سريعة بعيدة المدى .

لذلك فليكن التواؤكم بين يدى رامى السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة :

لأنهُ كما يحب السهم الذى يطير من قوسهِ . هكذا يحب القوس التى تثبت بين يديهِ .

ثم قال له رجل غنى ، هات حدثنا عن العطاء .

فأجاب قائلاً :

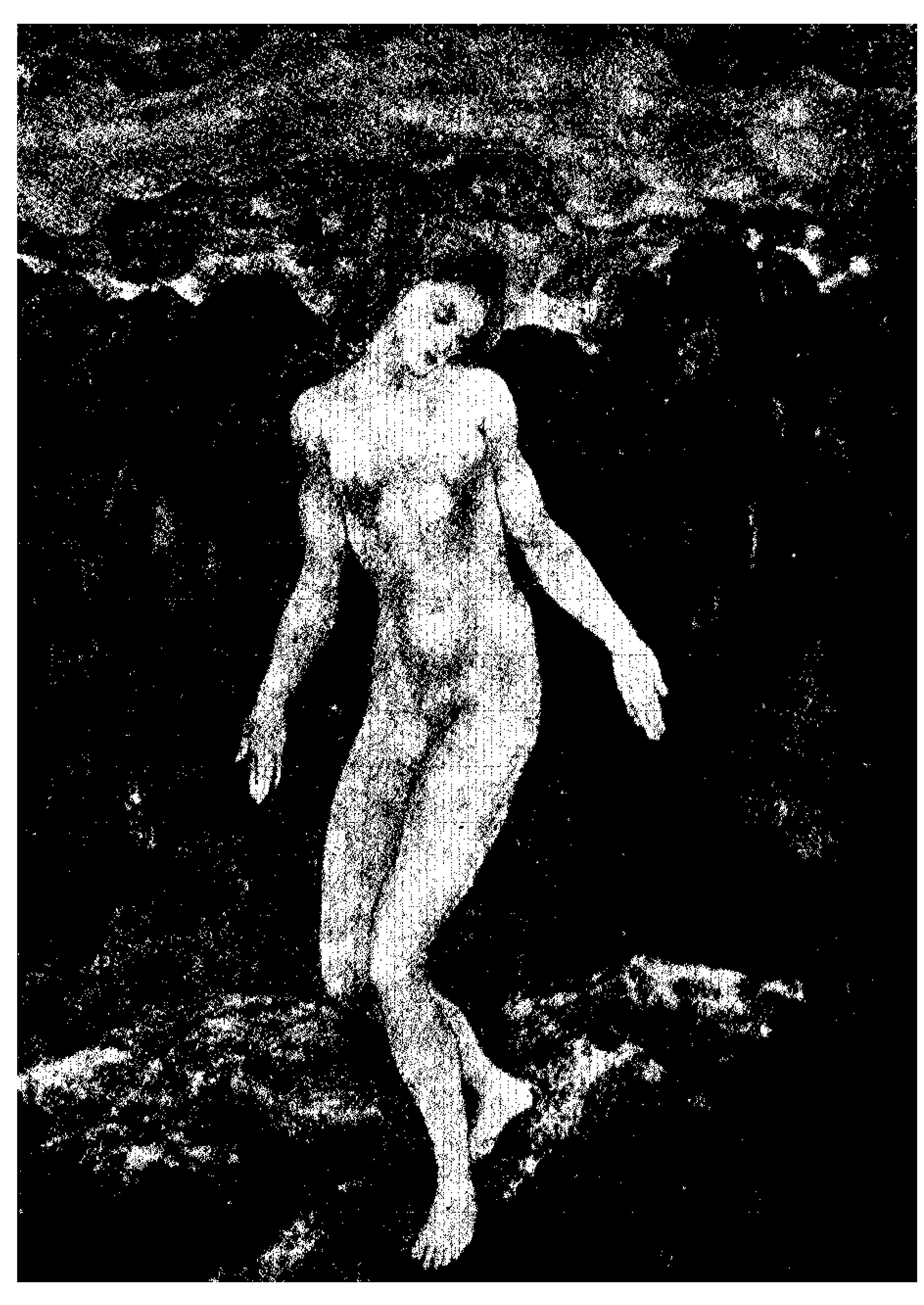
انك اذا أعطيت فانما تعطى القليل من ثروتك .

ولكن لا قيمة لما تعطيهِ مالم يكن جزءًا من ذاتك.

لانهُ أى شيء هى ثروتك؟

أليست مادة فانية تخزنها فى خزائنك وتحافظ عليها جهدك خوفاً من أن تحتاج اليها غداً ؟

والغدُ ، ماذا يستطيع الغد أن يقدم للكلب البالغ الفطنة



الذى يطمر العظام فى الرمال غير المطروقة وهو يتبع الحجاج الى المدينة المقدسة ؟

أَوليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها ؟

أَم ليس الظمأُ الشديد للماء عند ما تكون بئرُ الظامى ملآنة هو العطشُ الذى لا تروى غُلته ؟

* * *

مِنَ الناس مَنْ يعطون قليلاً من الكثير الذى عندهم — وهم يعطونهُ لاجل الشهرة ، ورغبتهم الخفية فى الشهرة الباطلة تضيع الفائدة من عطاياهم .

ومنهم من يملكون قليلاً ويعطونهُ بأَسرهِ .

ومنهم المؤمنون بالحياة وبسخاء الحياة ، هؤلاء لا تفرغ صناديقهم وخزائنهم ممتلئة أبداً .

ومن الناس من يعطون بفرح ، وفرحهم مكافأة لهم .

ومنهم من يعطون بالم ، وألمهم معمودية لهم .

وهنالك الذين يعطون ولا يعرفون معنى للألم فى عطائهم ،

ولا يتطلبون فرحاً ، ولا يرغبون فى اذاعة فضائلهم ؛
هؤلاء يعطون مما عنـدهم كما يعطى الريحان عبيرهُ العطرِ
فى ذلك الوادى .

بمثل أيدى هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم
يبتسم على الأرض .

*
* *

جميلٌ أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة اليهِ ،
ولـكن أجمل من ذلك أن تعطى من لا يسألك وأنت
تعرف حاجتهُ ؛ فان من يفتح يديهِ وقلبهُ للعطاء يكون لهُ
فرحٌ بسعيهِ الى من يتقبل عطاياهُ والاهتداء اليهِ أعظم مما
بالعطاء نفسهِ .

وهل فى ثروتك شئ لا تقدر ان تستبقيهُ لنفسك ؟
فان كل ما تملكهُ اليوم سيتفرق ولا شك يوماً ما ،
لذلك أَعط منهُ الآن ، ليكون فصل العطاء من
فصول حياتك أنت دون ورثتك .

*
* *

وقد طالما سمعتك تقول متبجحاً ، « انى أُحب ان أُعطى ، ولكن المستحقين فقط . »

فهل نسيت ياصاح ، ان الاشجار فى بستانك لاتقول قولاك ، ومثلها القطعان فى مراعيك ؟

فهى تعطى لكى تحيا ، لانها اذا لم تعطِ عرضت حياتها للتهلكة .

الحق اقول لك : ان الرجل الذى استحق ان يقتبل عطية الحياة ويتمتع بايامهِ ولياليهِ ، هو مستحق لكل شيء منك .

والذى قد استحق ان يشرب من اوقيانوس الحياة يستحق أن يملأ كأسهُ من جدولك الصغير .

لانه اىُّ صحراء اعظم من الصحراء ذات الجراءة والجسارة على قبول العطية بما فيها من الفضل والمنة ؟

وانت ، من أنت ، حتى ان الناس يجب ان يمزقوا صدورهم ويحسروا القناع عن شهامتهم وعزة نفوسهم لكى

ترى جدارتهم لعطائك عارية وأنفتهم مجردةً عن الحياء ؟

فانظر اولاً هل انت جدير بان تكون معطاءً ، وآلة العطاء

لان الحياة هى التى تعطى للحياة ، — فى حين انك ، وانت الفخور بان قد صدر العطاء منك ، — لست بالحقيقة سوى شاهد بسيط على عطائك .

***

أما انتم ، الذين يتناولون العطاء والاحسان ، — وكلكم منهم ، — فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل ، لئلا تضعوا بايديكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم ورقاب الذين اعطوكم .

بل فلتكن عطايا المُعطى أجنحة ترتفعون بها معهُ :

لانكم اذا اكثرتم من الشعور بما انتم عليهِ من الدين ، فانكم بذلك تظهرون الشك والريبة فى اريحية المحسن الذى الارض السخية امهُ ، والرب الكريم ابوهُ .

وبعد ذلك جاءَ اليهِ فندقٌ شيخ وقال لهُ ، هات حدثنا عن المأ كل والمشرب .

فاجاب قائلاً :

اودُّ لو انك تقدرُ أَن تعيش على عبير الأرض ،

تكتفي بالنور كنباتات الهواء .

غير انك مضطرٌ أَن تقتل لتعيش ، وان تسرق المولود الصغير من حضن امهِ مختطفاً حليبها لتبريد ظمإك ،

لذلك فليكن عملك مظهرا من مظاهر العبادة .

ولتكن مائدتك مذبحاً تقرَّبُ عليهِ التقادمُ النقية الطاهرة من الحقول والسهول ضحيةً لما هو اكثر منها نقاوةً في اعماق الانسان .

* * *

واذا ذبحتَ حيوانًا فقل لهُ في قلبك .

« ان القوة التي امرت بذبحك ، ستذبحني نظيرك ،

« وعند ما تحين ساعتى ساحترق مثلك .

« لان الشريعة التى اسلمتك الى يدَىَّ ، ستسلمنى الى يدَى من هو اقوى منى .

« وليس دمك ودمى سوى عصارة قد أُعدت منذ الأزل غذاءً لشجرة السماء . »

***

واذا نهست تفاحةً . باسنانك . فقل لها فى قلبك ،

« ان بزورك ستعيش فى جسدى .

« والبراعم التى ستخرج منها فى الغد ستزهر فى قلبى ،

« وسيتصاعد عبيرك مع انفاسى ،

« وسأفرح معك فى جميع الفصول . »

***

واذا قطفت العنبَ من كرومك فى ايام الخريف ، وحملتهُ الى المعصرة ، فقل لهُ فى قلبك ،

« انا كرمة مثلك ، وستجمع اثمارى وتحمل الى المعصرة ،

« وسيضعونني كالخمر الجديدة في زقاقٍ جديدة . »

وعند ما تستقي الخمرة من زقاقها في ايام الشتاء ، أنشد في قلبك انشودة لكل كأس تشربها ،

وليكن لك من اناشيدك اجمل التذكارات لأيام الخريف وللكرمة والمعصرة .

ثم جاء اليهِ فلاحٌ وقال لهُ ، هات حدثنا عن العمل .

فاجاب قائلاً :

انكم تشتغلون لكي تجاروا الارض ونفس الارض في سيرها .

لان الكسول غريبٌ عن فصول الأرض ، وهائمٌ لايسير في موكب الحياة ، السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللانهاية الى غير المتناهي .

***

فاذا اشتغلت فما انت سوى مزمار تختلج في قلبك مناجاة الايام فتتحول الى موسيقى خالدة .

ومن منكم يودّ ان يكون قصبةً خرساءَ صماء ، وجميع ماحولها يترنم معاً بانغام متفقة ؟

* * *

قد طالما أُخبرتم ان العمل لعنة ، والشغل نكبة ومصيبة .

أَما انا فاقول لكم انكم بالعمل تحققون جزءاً من حلم الارض البعيد ، جزءاً خُصِّص لكم عند ميلاد ذاك الحلم ،

فاذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة .

لأنَّ من احب الحياة بالعمل النافع تفتح لهُ الحياة اعماقها ، وتُدْنِيهِ من أَبعد اسرارها .

* * *

ولكن اذا كنتم وأنتم فى الآلام تدعون الولادة كآبة ، ودعامة الجسد لعنة مكتوبة على جباهكم ، فانى الحق أقول لكم أنه ما من شىء يستطيع أن يمحو هذه الكتابة ويغسل جباهكم من آثارها سوى سعيكم وجهادكم .

* * *

وقد ورثتم عن جدودكم القول إن الحياة ظلمة ، فرحتم
فى عهد مشقتكم ترددون ما قالهُ قبلكم جدودكم المزعجون .
فالحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة
اذا لم ترافقها الحركة .

الحركة تكون عمياء لا بركة فيها ان لم ترافقها المعرفة ،
والمعرفة تكون عقيمة سقيمة ان لم يرافقها العمل ،
والعمل يكون باطلا وبلا ثمر ان لم يقترن بالمحبة . لأنكم
اذا اشتغلتم بمحبة فانما تربطون أنفسكم وأفرادكم بعضها ببعض ،
وترتبطون كل واحد منكم بربهِ .

*
* *

وما هو العمل المقرون بالمحبة ؟
هو أن تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك
مفكراً ان حبيبك سيرتدى ذلك الرداء .
هو أن تبنى البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك
واخلاصك مفكراً ان حبيبك سيقطن فى ذلك البيت .

هو أن تبذر البذور بدقة وعناية ، وتجمع الحصاد بفرح ولذة كأنك تجمعهُ لكي يقدم على مائدة حبيبك .

هو أن تضع فى كل عمل من اعمالك نسمة من روحك ، وتثق بأن جميع الاموات الاطهار محيطون بك يراقبون ويتأملون .

*
* *

وكثيراً ما كنت أسمعكم تناجون أنفسكم . كأنكم فى نوم عميق . قائلين : « ان الذى يشتغل بنحت الرخام فيوجد مثالاً محسوساً لنفسهِ فى الحجر الأصم هو أشرف من الفلاح الذى يحرث الأرض .

والذى يستعير من قوس قزح الواناً يحول بها قطعة النسيج الحقيرة الى صورة انسان ، هو أفضل من الاسكاف الذى يصنع الأحذية لأقدامنا .

ولكننى أقول لكم . لا فى نوم الليل ، بل فى يقظة الظهيرة البالغة ، ان الريح لا تخاطب السنديانة الجبّارة بلهجة أحلى من اللهجة التى تخاطب بها أحقر اعشاب الارض :

والعظيم العظيم ذاك الذى يحول هينمة الريح الى انشودة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة .

***

أجل ، ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة .

فاذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجراً ملولاً ، فالاجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة .

لأنك اذا خبزت خبزاً وأنت لا تجد لك لذة فى عملك ، فانما أنت تخبز خبزاً علقماً لا يشبع سوى نصف مجاعة الانسان

واذا تذمرت وأنت تعصر عنبك ، فان تذمرك يدس لك سماً فى الخمرة المستقطرة من ذلك العصير .

وان انشدت أناشيد الملائكة ، ولم تحب أن تكون منشداً ، فانما أنت تصم آذان الناس بانغامك عن الاصغاء الى اناشيد الليل واناشيد النهار .

ثم قالت له امرأة ، هات لنا شيئاً عن الفرح والترح

فاجاب وقال :

ان فرحكم هو ترحكم ساخراً .

والبئر الواحدة التى تستقون منها ماءَ ضحككم قدطالما ملئت بسخين دموعكم .

وهل فى الامكان ان يكون الحال على غيرهذا المنوال ؟

فكلما أعمل وحش الحزن انيابَهُ فى أجسادكم، تضاعف الفرحُ فى اعماق قلوبكم .

لانهُ أليست الكاس التى تحفظ خمرتكم هى نفس الكأس التى أحرقت فى اتون الخزاف قبل ان بلغت اليكم ؟

ام ليست القيثارة التى تزيد فى طمأنينة ارواحكم هى نفس الخشب الذى قطع بالمدى والفؤوس ؟

فاذا فرحتم فتأملوا ملياً فى اعماق قلوبكم تجدوا أن ما أحزنكم قبلاً يفرحكم الآن .

واذا احاطت بكم جيوش الكآبة فارجعوا ببصائركم ثانيةً الى اعماق قلوبكم وتاملوا جيّداً ، تروا هنالك بالحقيقة

انكم تبكون لما كنتم تعتقدون أنهُ غاية مسراتكم على الارض .

*
* *

ويخيل اليَّ ان فريقاً منكم يقول ، « ان الفرح اعظم من الترح ، » فيعارضهُ فريق آخر قائلاً . « كلا ، بل الترح أعظم من الفرح . »

أمَّا انا فالحق اقول لكم . « انهما توأمان لا ينفصلان . يأتيان معاً ويذهبان معاً ، فاذا جلس احدهما منفرداً الى مائدتكم ، فلا يغرب عن اذهانكم ان رفيقهُ يكون حينئذٍ مضطجعاً على أسرتكم .

*
* *

اجل ، انكم بالحقيقة معلقون ككفتَي الميزان بين ترحكم وفرحكم .

وانتم بينهما متحركون ابداً ، ولا تقف حركتكم الا اذا كنتم فارغين في اعماقكم

فاذا جاءَ امين خزائن الحياة يرفعكم لكى يزن ذهبهُ وفضتهُ ، فلا ترتفع كفة فرحكم ولا ترجح كفة ترحكم . بل تثبتان على حالة واحدة .

حينئذ دنا منه بناء وقال لهُ هات حدثنا عن البيوت .

فأجاب وقال :

ابنِ من خيالك مظلة فى الصحراء قبل أن تبنى بيتاً فى داخل اسوار المدينة .

لأنهُ كما أن لك بيتاً مقبلاً فى شفق حياتك ، كذلك للغريب الهائم فيك بيت كبيتك .

ان بيتك هو جسدك الأكبر .

ينمو فى حرارة الشمس وينام فى سكينة الليل: وكثيراً ما ترافق نومهُ الاحلام . أفلا يحلم بيتك ؟ وهل يترك الحلم المدينة ويسير الى الغابة أم الى راس التلة ؟

أوّه لو استطيع أن اجمع بيوتكم بيدى ، فابددها فى الاحراج والرياض كما يبذر الزارع زرعهُ فى الحقول .

أودّ لو كانت الاودية شوارع لـكم ، ومسالك التلال الخضراء أزقة تطرقها أقدامكم عوضاً عن أزقتكم وشوارعكم القذرة، وياليتكم تنشدون بعضكم بعضاً بين الدوالى والكروم ثم تعودون حاملين عطر الارض فى طيات أثوابكم .

ولـكن هذه جميعها تمنيات لم تحن ساعتها بعد .

لأن آباءكم وجدودكم إذ خافوا عليكم الضياع والضلال جمعوكم معاً لـكى تكونوا قريبين بعضكم من بعض. وسيبقى هذا الخوف مجمعاً لـكم زمناً بعد . وستظل اسوار المدينة فاصلة مواقدكم عن حقولـكم ، ولـكن الى حين .

***

بربكم اخبرونى . يا ابناء أورفليس ، ماذا تملـكون فى هذه البيوت ؟ وأىُّ شىء تحتفظون بهِ فى داخل هذه الابواب المرصدة ؟

هل عندكم السلام . وهو القوة الصامتة التى تظهر ذاتكم الشديدة العزم المستترة فى أعماقكم ؟

هل عندكم التذكارات ، وهى القناطر اللامعة التى تصل قنن الفكر الانسانى بعضها ببعض ؟

هل عندكم الجمال ، الذين يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة الى الجبل المقدس ؟

ربكم اخبرونى ، هل عندكم كل هذا فى بيوتكم ؟

أم عندكم الرفاهية فقط . والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع ، الرفاهية التى تدخل البيت ضيفاً ، ثم لا تلبث ان تصير مضيفاً ، فسيداً عاتياً عنيفاً ؟

ثم تتحول الى رائض جبار يتقلّد السوط بيمينه والكلاّب بيساره متخذاً رغباتكم الفضلى العوبة يتلهى بها .

ومع أن بنان هذه الرفاهية حريرىّ الملمس فإن قلبها حديدىّ صلد .

فهى تهدىء من حدتكم لكى تناموا ، ثم تقف امام أسرّتكم هازئة بكم وبجلال اجسادكم .

تضحك من حواسكم المدركة ، وتطرح بها بين

الاشواك كأنها أوعية سهلة الانكسار .

لان التحرق للرفاهية ينحر اهواء النفس فى كبدها فيرديها قتيلة ، ثم يسير فى جنازتها فاغراً شدفيه مرغياً مزبداً .

***

اما انتم ، يا ابناء الفضاء ، العائشين فى الراحة والنعيم وغير المستريحين ، فانكم لن تؤخذوا بالاشراك ولن يقدر رائض على ترويضكم .

لأن بيتكم لن يكون مرساة ولكنهُ سيكون سارية .

كلا ، ولن يكون غشاء براقاً تُغطى بهِ الجراح ، بل جفناً تحفظ بهِ العين .

وانتم لن تطووا اجنحتكم لكى تستطيعوا ان تدخلوا من الابواب ، ولن تحنوا رؤوسكم لئلا تنطح السقف ، كلا ، ولن تخشوا ان تتنفسوا خوفاً من ان تقوض اساسات الجدران وتسقط على الارض .

اجل ، ولن تقطنوا فى القبور التى بناها ابناء الموت لابناء الحياة .

ومع كل ما يزين منازلكم من الجلال والجمال فانها لن تستطيع ان تحتفظ بسركم او ان تؤاوى حنينكم :

لان غير المحدود فيكم يقطن فى منزل السماء ، الذى بوابته سحابة الصباح ونوافذه سكون الليل وأناشيده .

ثم قال له الحائك ، هات حدثنا عن الثياب .

فاجاب قائلاً :

ان ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ، ولكنها لاتستر غير الجميل .

ومع انكم تنشدون بثيابكم حرية التستر والانفراد ، فانها تقيدكم وتستعبدكم .

وياليت فى وسعكم ان تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم ،

لان انفاس الحياة فى أشعة الشمس ، ويد الحياة تسير مع مجارى الرياح .

*
* *

يقول بعض منكم ، « ان الريح الشمالية دون غيرها ، قد حاكت الثياب التى نلبسها . »

وانا اقول لكم ، نعم ، ان الريح الشمالية قد فعلت ذلك ، ولكن العار كان نولاً لها ، ولدونة العضلات كانت لها خيطاً .

وعند ما فرغت من عملها ضحكت منكم وهى تعصف فى قلب الغاب .

ولكن لا يغرب عن اذهانكم ان الحشمة هى ترسٌ منيعٌ متين للوقاية من عيون المدنسين .

فاذا زال المدنسون من الوجود ، أَفلا تصير الحشمة قيداً للفكر وتلويثاً لهُ فى حمأة العبودية ؟

لذلك ضعوا نصب عيونكم ان الارض تبتهجُ بملامسة أَقدامكم العارية ، والرياح تتوق الى ملاعبة شعوركم المسترسلة .

ثم دنا منهُ تاجرٌ وقال له ، هات حدثنا عن البيع والشراء .

فاجاب وقال :

ان الارض تقدم لكم ثمارها ، ولو عرفتم كيف تملأون أيديكم من خيراتها لما خبَرْتُمْ طعم الحاجة فى حياتكم .

لانكم بغير مبادلة عطايا الارض لن تجدوا وَفْراً من الرزق ولن يشبع جشعكم .

فيجدر بكم أَن تتمّوا هذه المقايضة بروح المحبة والعدالة ، والا فانها تؤدى بالبعض منكم الى الشراهة وبغيرهم الى الطمع والمجاعة .

*
* *

واذا ذهبتم الى ساحة المدينة ايها الدائبون فى خدمة البحر والحقول والكروم فاجتمعوا بالحاكة والخرافين وجامعى الحنوط والطيوب ، —

واضرعوا فى تلك الساعة الى الروح المتسلّطة على الارض ، ان تحلّ عليكم وتبارك مقاييدكم وموازينكم التى تُعيّنون بها مقدار ما تجرى عليهِ مقايضاتكم .

ولا تأذنوا لذوى الايدى العقيمة من ذوى البطالة ان

يشتركوا فى معاملاتكم ، لانهُ لا شئ لهم يتاجرون بهِ سوى أقوالهم التى يبيعونها لكم باعمالكم .

بل قولوا لامثال هؤلاء ،

« تعالوا معنا الى الحقل ، او فاذهبوا مع اولادنا الى البحر وألقوا هنالك شباككم ،

لان الارض والبحر يجودان عليكم، متى عملتم ،كما يجودان علينا . »

*
* *

وان جاءكم المغنون والراقصون والعازفون ، —

فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم .

لانهم يجمعون الاثمار والعطور نظيركم ، ومع ان مايقدمونهُ لكم مصنوعٌ من مادة الاحلام فانهُ اجمل كساء وافضل غذاء لنفوسكم .

*
* *

وقبل ان تبرحوا ساحة المدينة انظروا ألاَّ ينصرف احدٌ منها فارغ اليدين .

لان الروح السيدة فى الارض لا تنام بطمأنينة وسلام على تموجات الرياح حتى تشاهد بعينيها ان الصغير فيكم ، قد نال كالكبير بينكم ، كل ما هو فى حاجة اليهِ .

حينئذ وقف احد قضاة المدينة وقال لهُ ، هاتِ لنا خطبةً فى الجرائم والعقوبات .

فاجاب وقال :

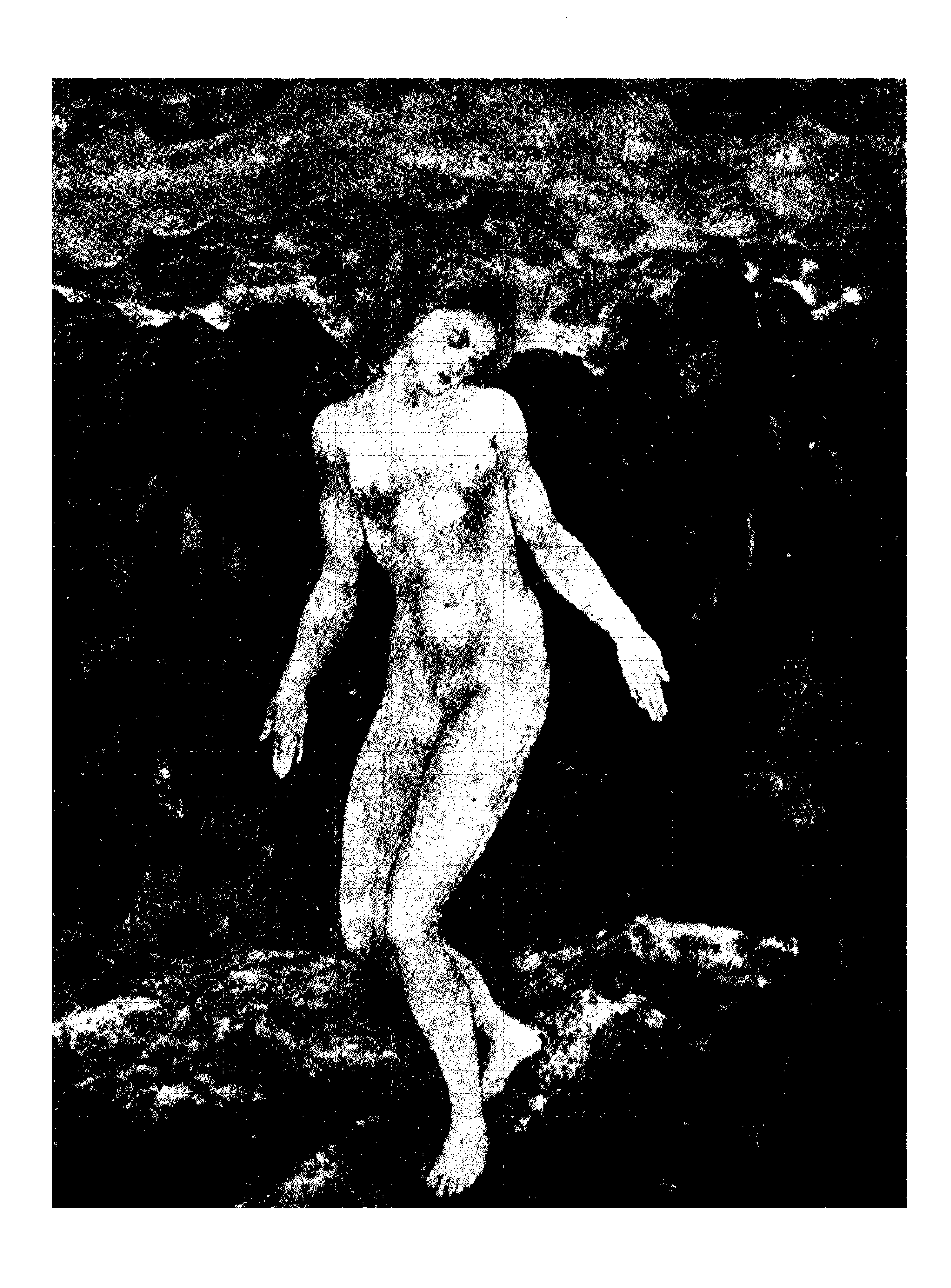
عند ما تسير ارواحكم هائمة فوق الرياح ،

وتمسون منفردين ، ليس لكم من يقيكم طوارئ السوء ،

حينئذ تقترفون الاثم ضد غيركم وضد أنفسكم

ولاجل ذلك الاثم الذى تقترفونهُ يجب ان تقرعوا برهةً وتنتظروا على بوابة القدوس .

*
* *



فان ذاتكم الالهية بحرٌ عظيم ،
كانت نقية منذ الازل وستظل نقيةً الى آخر الدهور .
وهى كالاثير لا ترفعُ الا ذوى الاجنحة .
أجل ، ان ذاتكم الالهية كالشمس ،
لا تعرف طرق المناجذ[1] ، ولا تعبأُ بأوكار الأفاعى .
غير انها لا تقطن وحيدةً فى كيانكم .
لان كثيراً منكم لا يزال بشراً ، وكثيراً غيرهُ لم يصر بشراً بعدُ ، بل هو مسخٌ لا صورة لهُ يسير غافلاً فى الضباب وهو ينشد عهد يقظته .
فلا أود أن احدثكم الآن الا عن هذا الانسان فيكم .
لان هذا الانسان — دون ذاتكم الالهية ودون المسخ الهائم فى الضباب — ، هو الذى يعرف الجرائم والعقوبات على الجرائم فى كيانكم .

*
* *

قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف

---

(١) مناجذ جمع خلد من غير لفظه

اثماً كأنهُ ليس منكم ، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم

ولكنني الحق اقول لكم ، كما ان القديس والبارّ لا يستطيعان ان يتساميا فوق الذات الرفيعة التي في كل منكم ،

هكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان ان ينحدرا الى أدنى من الذات الدنيئة التي في كل واحد منكم .

وكما ان ورقة الشجر الصغيرة لا تستطيع ان تحول لونها من الخضرة الى الصفرة الا بارادة الشجرة ومعرفتها الكامنة في اعماقها ،

هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم ان يقترف أثماً بدون ارادتكم الخفية ومعرفتكم التي في قلوبكم .

فانكم تسيرون معاً في موكب واحد الى ذاتكم الالهية .

أنتم الطريق وانتم المطرقون .

فاذا عثر احدٌ منكم فانما تكون عثرتهُ عبرةً للقادمين وراءهُ فيجتنبون الحجر الذي عثر بهِ .

اجل ، وتكون عثرتهُ توبيخاً للذين يسيرون أمامهُ باقدام سريعة ثابتة لانهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقهِ .

***

واليكم يا ابناء اورفليس هذه الكلمة التى ، وان حلت ثقيلة على قلوبكم ، فهى الحقيقة بعينها :

ان القتيل ليس بريئاً من جريمة القتل ،

وليس المسروق بلا لوم فى سرقتهِ ،

لا يستطيع البار ان يتبرأَ من اعمال الشرير ،

ولا الطاهر النقيُّ اليدين برىء الذمة من قذارة المدَنَّسين .

كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليهِ جرمهُ ،

كما يغلب ان يحمل المحكوم عليهِ الاثقال التى كان يجب ان يحملها الأبرياء وغير المحكومين .

لذلك لا تستطيعون ان تضعوا حداً يفصل بين الاشرار والصالحين او الابرياء والمذنبين ،

لانهم يقفون معاً أمام وجه الشمس ، كما ان الخيط

الابيض والخيط الاسود يُنسجان معاً فى نولٍ واحد .

فاذا انقطع الخيط الاسود ، ينظر الحائك الى النسيج باسرهِ ، ثم يرجع الى نولهِ يفحصهُ وينظفهُ .

*
* *

لذلك اذا جاءَ أَحدكم بالزوجة الخائنة الى المحاكمة ، فليزن أولا قلب زوجها بالموازين ، وليقس نفسهُ بالمقاييس .

وكل من شاءَ ان يلطم المجرم بيمينهِ يجدر بهِ أَولاً ان ينظر ببصيرة ذهنهِ الى روح مَنْ أوقع الجُرم عليهِ .

وان رغب احدٌ منكم فى ان يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة ، فلينظر اولاً الى اعماق جذورها ،

وهو لا شك واجدٌ ان جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة ، المثمرة وغير المثمرة ، كلها مشتبكة معاً فى قلب الأرض الصامت .

أما انتم ايها القضاة الذين يريدون ان يكونوا ابراراً ،

ایّ نوع من الاحکام تصدرون علی الرجل الامین بجسدهِ السارق بروحهِ ؟

أم أیّ عقاب تنزلون بذلك الذی یقتل الجسد مرةً ولکن الناس یقتلون روحهُ ألف مرة ؟

وکیف تطاردون الرجل الذی مع انهُ خداعٌ ظالمٌ باعمالهِ ، فهو موجعُ القلب ، ذلیلٌ ، مهانٌ بروحهِ ؟

***

اجل ، کیف تستطیعون ان تعاقبوا الذین لهم من توبیخ ضمائرهم ، وهو اعظم من جرائمهم ، أکبر قصاص علی الارض ؟

الیس توْبیخ الضمیر هو نفسهُ العدالة التی تتوخاها الشریعة التی تتظاهرون بخدمتها ؟

فانتم لا تستطیعون ان تسکبوا بلسم توبیخ الضمیر فی قلوب الابریاء ، کما انکم لا تقدرون ان تنزعوهُ من قلوب الاشقیاء .

فهو يأتى لذاته فى ساعة من الليل لا ننتظرها ، داعياً الناس الى النهوض من غفلتهم ، والتأمل فى حياتهم وما فيها من التعديات والمخالفات .

وانتم ، ايها الراغبون فى سبر غور العدالة ، كيف تقدرون ان تدركوا كنهها ان لم تنظروا الى جميع الاعمال بعين اليقظة فى النور الكامل ؟

فى مثل هذا النور تعرفون ان الرجل المنتصب والرجل الساقط على الارض هما بالحقيقة رجل واحد واقف فى الشفق بين ليل ذاته الممسوخة ونهار ذاته الالهية ،

وان حجر الزاوية فى الهيكل ليس باعظم من الحجر الذى فى أسفل اساساته

ثم قال له مشترع ، وماذا تعتقد بشرائعنا أيها المعلم ؟

فأجاب قائلاً :

انكم تستلذون أن تضعوا شرائع لأنفسكم

بيد أنكم تستلذون بالأكثر أن تكسروها وتتعدوا فرائضها .

لذلك أنتم كالأولاد الذين يلعبون على الشاطئ — يبنون أبراجاً عظيمة من الرمل بصبر وثبات ، ثم لا يلبثون أن يهدموها ضاحكين صاخبين

فعند ماتبنون أبراجكم الرملية ، يأتى البحر برمال جديدة إلى الشاطئ .

وعند ما تهدمون أبراجكم يضحك البحر منكم فى نفسه لأن البحر يضحك من الأبرياء أبداً .

*\
* *

ولكن ماذا أقول فى من ليست الحياة بحراً فى عقيدتهم بل ليست الشرائع التى تسنها حكمة الانسان البالغة أبراجاً من الرمال فحسب .

أولئك الذين يحسبون أن الحياة صخرة صلدة ، وأن الشريعة ازميلٌ حادٌ يأخذونهُ بأيديهم لكى ينحتوا هذه الصخرة على صورتهم ومثالهم ؟

وماذا أقول فى المقعدين الذين يكرهون الراقصين ؟

وفى الثور الذى يحب نيرهُ ويتهم الوعل والابل والظبى أنها حيوانات متمردة ناشزة ؟

وفى الأفعى العتيقة الأيام التى لاتستطيع أن تخلع جلدها ، ولذلك تنبرى متهمة جميع الحيوانات بالعرى وقلة الحياء ؟

وفى ذلك الذى يسبق غيرهُ إلى وليمة العرس ؛ وعندما يملأ جوفهُ من الأطعمة ويبلغ حدهُ من النهم والشراهة يترك الوليمة ويذهب فى طريقهِ قائلاً ان جميع الولائم مخالفات للناموس وجميع الذين يجتمعون إليها متعدّو الشريعة ؟

***

ماذا أقول فى أمثال هؤلاء ؟ إنهم كجميع الناس يقفون فى أشعة الشمس ، ولكنهم يُوَلُّون الشمس ظهورهم ؟

فهم لذلك لا ينظرون سوى ظلالهم ، وظلالهم هى عند التحقيق شرائعهم المقدسة .

وهل الشمس فى اعتقادهم سوى منشئ الظلال ؟

وهل اعترافهم بالشريعة سوى أنهم ينحنون ويطأطئون رؤوسهم لكى يستقصوا ظلالهم على الأرض؟

أما أنتم، الذين يمشون وهم يحدقون الشمس بأجفان غير مرتعشة . فهل فى الأرض من صورة تستطيع أن تستوقفكم هنيهة؟

وأنتم، المسافرين مع الريح، أية صفحة من الصفحات الدالة على مجارى الرياح تقدر أن تقودكم فى مسالككم؟

وما هى الشريعة البشرية التى تقيدكم إذا كنتم لم تحطموا نيركم على باب سجن من سجون الانسان .

وأية شرائع ترهبون إذا كنتم ترقصون ولكنكم لا تعثرون بقيد من قيود العالم الحديدية؟

ومن هو الرجل الذى يستطيع أن يأتى بكم إلى المحاكمة إذا مزقتم أثوابكم ولكنكم لم تضعوها فى طريق أحد من الناس؟

*
* *

أجل يا أبناء أورفليس ، انكم تستطيعون أن تخمدوا صوت الطبل ، وتحلوا أوتار القيثارة ، ولكن مَنْ مِنْ أبناء الانسان يستطيع أن يمنع قنبرة السماء عن الغناء ؟

ثم قال له خطيبٌ ، هات حدثنا عن الحرية ؟

فأجاب وقال :

قد طالما رأيتكم ساجدين على ركبكم أمام أبواب المدينة والى جوانب المواقد تعبدون حريتكم

وأنتم بذلك أشبه بالعبيد الذين يتذللون أمام سيدهم العسوف الجبار يمدحونهُ وينشدون لهُ وهو يعمل السيف في رقابهم .

نعم ، وفي غابة الهيكل ، وظل القلعة ، كثيراً ما رأيتُ أشدكم حرية يحمل حريتهُ كنير ثقيل لعنقهِ وغل متين ليديهِ ورجليهِ .

رأيت كل ذلك فذاب قلبي في أعماق صدري ، ونزفت دماؤهُ ، لأنكم لاتستطيعون أن تصيروا أحراراً حتى تتحول

رغبتكم فى السعى وراء الحرية الى سلاح تتسلحون به ،
وتنقطعوا عن التحدث بالحرية كغايتكم ومحجتكم .

*
* *

انكم تصيرون أحراراً بالحقيقة اذا لم تكن أيامكم بلا عمل تعملونهُ ولياليكم بلا حاجة تفكرون بها ، أوكآبة تتألمون لذكراها ،

بل تكونون أحراراً عند ما تُنطِّق هموم الحياة وأعمالها أحقاءكم بمنطقة الجهاد والعمل ، وتثقل كاهلكم بالمصاعب والمصائب ولكنكم تنهضون من تحت أثقالها عراةً طليقين .

لأنكم كيف تستطيعون أن ترتفعوا الى ما فوق أيامكم ولياليكم اذا لم تحطموا السلاسل التى أنتم أنفسكم فى فجر ادراككم قيدتم بها ساعة ظهيرتكم الحرّة ؟

ألا ان ما تسمونهُ حرية انما هو بالحقيقة أشد هذه

السلاسل قوة ، وان كانت حلقاته تلمع فى نور الشمس وتخطف أبصاركم .

* * *

وماذا يجدر بكم طرحه عنكم لكى تصيروا أحراراً سوى كِسَر صغيرة رثة فى ذاتكم البالية ؟

فان كانت هذه الكسر شريعة جائرة وجبَ نسخها ؛ لأنها شريعة سطرتها يمينكم وحفرتها على جبينكم .

بيدأ نكم لا تستطيعون أن تمحوها عن جباهكم باحراق كتب الشريعة التى فى دواوينكم ؛ كلا ، ولا يتم لكم ذلك بغسل جباه قضاتكم . ولو سكبتم عليها كل ما فى البحار من المياه

وان كانت طاغية تودون خلعهُ عن عرشهِ ، فانظروا أولاً ان عرشهُ القائم فى أعماقكم قد تهدَّم .

لأنهُ كيف يستطيع طاغية أن يحكم الأحرار

المفتخرين ، ما لم يكن الطغيان أساساً لحريتهم والعار قاعدة لكبريائهم ؟

وان كانت هماً ترغبون فى التخلص منهُ فان ذلك الهم انما أنتم اخترتموهُ ولم يضعه أحدٌ عليكم

وان كانت خوفاً تريدون طردَهُ عنكم ، فان جرثومة هذا الخوف مغروسة فى صميم قلوبكم وليست فى يدى مَن تخافون .

*
* *

الحق أقول لكم ، أن جميع الأشياء تتحرك فى كيانكم متعانقة على الدوام عناقاً نصفيا . كل ما تشتهون وما تخافون ، ما تتعشقون وما تستكرهون ، ما تسعون وراءهُ وما تهربون منهُ .

جميع هذه الرغبات تتحرك فيكم كالأنوار والظلال فاذا اضمحل الظل ولم يبق لهُ من أثر ، أمسى النور المتلألئ ظلاً لنور آخر سواهُ

وهكذا الحال فى حريتكم ، إذا حلت قيودها أمست هى نفسها قيداً لحرية أعظم منها .

ثم طلبت اليهِ العرافة ثانية قائلة ، هات حدثنا عن العقل والهوى .

فأجاب وقال :

كثيراً ماتكون نفوسكم ميداناً تثير فيهِ عقولكم ومداركـكم حرباً عواناً على أهوائكم وشهواتكم .

وأنى أود أن أكون صانع سلام فى نفوسكم ،

فأحول مافيكم من تنافر وخصام إلى وحدة وسلام .

ولكن أنَّى يكون لى ذلك ، إذا لم تصيروا أنتم صانعى سلام لنفوسكم ومحبين جميع عناصركم على السواء؟

* * *

ان العقل والهوى هما سكَّان[1] النفس وشراعها وهى سائرة فى بحر العالم .

---

(١) سكان السفينة ما يعرف بالدفة

فاذا انكسر السُكّان أو تمزق الشراع فان سفينة النفس لا تستطيع ان تتابع سيرها ، بل ترغم على ملاطمة الامواج يمنة ويسرة حتى تقذف بكم الى مكان امين تحفظون بهِ في وسط البحر .

لان العقل اذا استقل بالسلطان على الجسد قيد اهواءهُ ، ولكن الاهواء اذا لم يرافقها العقل كانت لهيباً يتأجج ليفني نفسهُ .

فاجعل نفسك تسمو بعقلك الى مستوى اهوائك . وحينئذ ترى منها ، ما يطربك ويشرح لك صدرك .

وليكن لك من عقلك دليلاً وقائداً لاهوائك لكي تعيش اهواؤكَ في كل يوم بعد موتها وتنهض كالعنقاء [١] متسامية فوق رمادها .

---

(١) العنقاء مؤنث اعنق ، وهو طائر معروف باسمه مجهول بجسمه . وفي الخرافات المصرية أنه طائر مقدس كان يأتي من بلاد العرب مرة في كل سنة الى هيليو بولس فيحرق نفسه على المذبح ثم لايلبث ان ينهض من وسط الرماد المحترق حياً جميلا كما كان . ولذلك كان عندهم رمزاً الى الخلود المترجم

*
* *

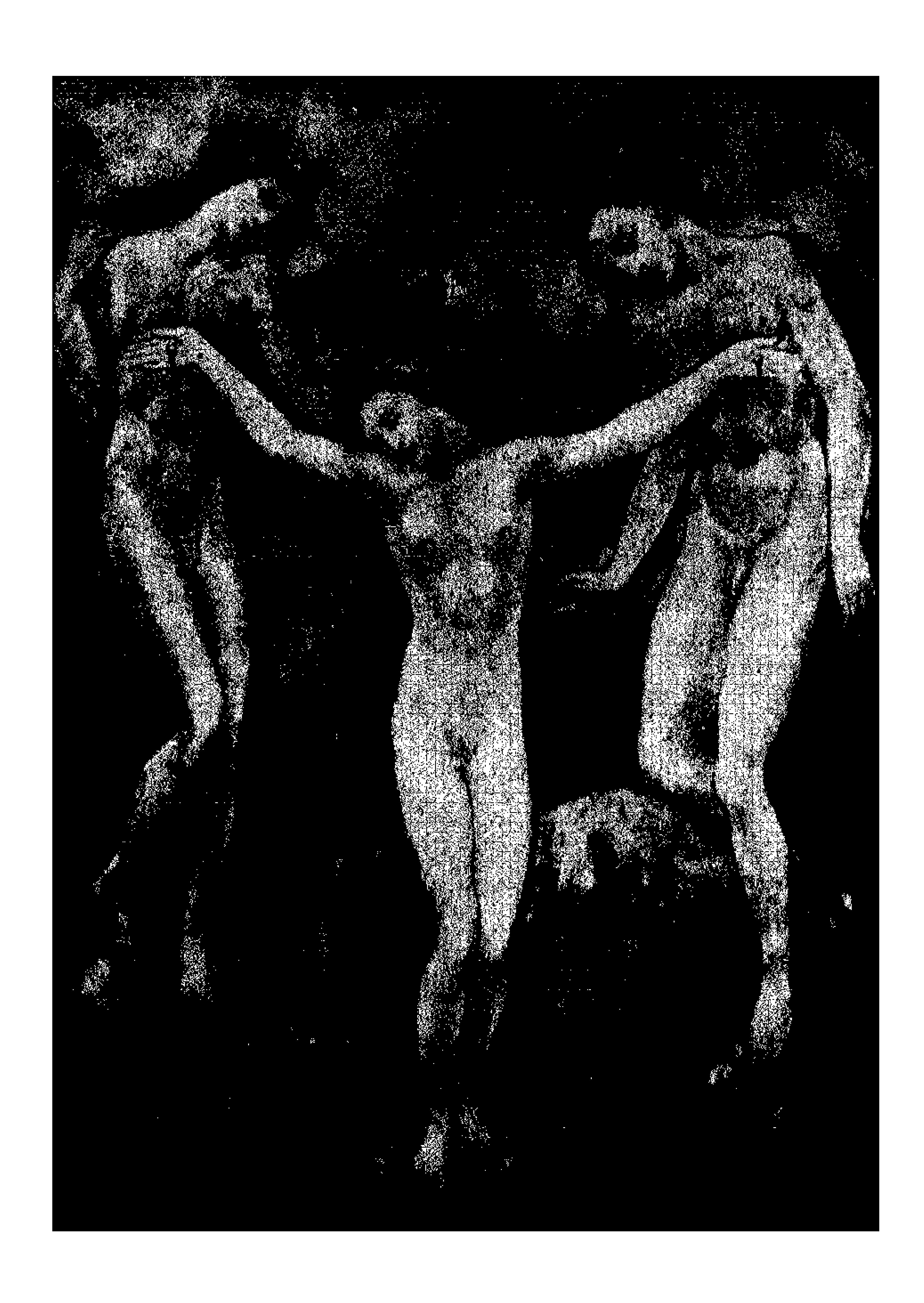
وارغب اليكم ان تُمنَوا بالعقل والهوى عنايتكم بطيفين عزيزين عليكم.

فانكم، ولا شك، لا تَكرمون الواحد اكثر من الثاني، لان الذي يعتني بالواحد ويهمل الآخر يخسر محبة الاثنين وثقتهما.

*
* *

واذا جلستم في ظلال الحور الوارفة، بين التلال الجميلة، تشاطرون الحقول والمروج البعيدة سلامها وسكينتها وصفاءها، — فقولوا حينئذ في قلوبكم، « ان الله يستريح في العقل. »

وعندما تعصف العاصفة، وتزعزع الرياح أصول الاشجار في الاحراج، وتعلن الرعود والبروق عظمة السماوات، — فقولوا حينئذ في اعماق قلوبكم متهيبين خاشعين، « ان الله يتحرك في الاهواء. »



صفحة ٦٧

وما دمتم نسمةً من روح الله ، وورقة فى حرجهِ، فانتم ايضاً يجب ان تستريحوا فى العقل و تتحركوا فى الاهواء

ثم نهضت من بين الجمع امرأة وقالت لهُ ، هات حدثنا عن الألم .

فاجاب وقال :

ان ما تشعرون بهِ من الألم هو انكسار القشرة التى تغلّفُ ادراككم .

وكما ان القشرة الصلدة التى تحجب الثمرة يجب ان تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الارض الى نور الشمس ،

هكذا انتم ايضاً يجب ان تحطم الآلام قشوركم قبل ان تعرفوا معنى الحياة .

لانكم لو استطعتم ان تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقّها من التأمل والدهشة ، لما كنتم ترون آلامكم اقل غرابة من افراحكم ،

بل كنتم تقبلون فصول قلوبكم ، كما قد قبلتم فى غابر

حياتكم الفصول التى مرت فى حقولكم .

وكنتم ترقبون وتتأملون بهدوء وسكون فى شتاء احزانكم وآلامكم .

***

أنتم مُخيرون فى الكثير من آلامكم .

وهذا الكثير من آلامكم هو الجرعة الشديدة المرارة التى بواسطتها يشفى الطبيب الحكيم الساهر فى أعماقكم أسقام نفوسكم المريضة .

لذلك آمنوا بطبيب نفوسكم ، وثقوا بما يصفهُ لكم من الدواء الشافى ، وتناوَلوا جرعتهُ المرة بسكينة وطمأنينة .

لأن يمينهُ ، وان بدت لكم ثقيلة قاسية ، فهى مقودة من يمين غير المنظور اللطيفة ،

والكأس التى يقدمها اليكم ، وان أحرقت شفاهكم ، فهى مصنوعة من الطين الذى جبلتهُ يدا الفخارى الأزلى بدموعه المقدسة .

ثم قال لهُ رجلٌ ، هات حدثنا عن معرفة النفس .

فأجاب قائلاً :

ان قلوبكم تعرف فى السكينة أسرار الأيام والليالى ،
ولكن آذانكم تتشوق لسماع صوت هذه المعرفة
الهابطة على قلوبكم .

غير انكم تودون لو تعرفون بالألفاظ والعبارات
ما تعرفونهُ بالأفكار والتأملات .

وتتوقون الى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم
العارى .

*
* *

وحسنٌ انكم تتوقون الى جميع ذلك .

فان الينبوع الكامن فى أعماق نفوسكم سيتفجرُ يوماً ما
ويجرى منحدراً الى البحر .

والكنز المطمور فى أعماقكم غير المتناهية سيُنقَبُ

فى ساعة لا تعلمونها وتفتح أبوابهُ أمام عيونكم .

ولكن حذارِ أن تأخذوا معكم موازينكم لكى تزنوا بها كنزكم غير المعروف .

كلا ، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياس محدود أو حبل مشدود .

لأن الذات بحرٌ لا وزن ولا قياس لهُ .

*
* *

أجل ، ولا تقل فى ذاتك ، « قد وجدتُ الحق » بل قُلْ بالأحرى ، « قد وجدتُ حقاً »

ولا تقل « قد وجدت طريق النفس » بل قل بالأَولى « قد رأيت النفس تمشى على طريقى »

لأن النفس تمشى على جميع المسالك والطرق .

النفس لا تمشى على حبل أو خيط ، كلا ، ولا هى تنمو كالقصبة .

النفس تطوى ذاتها ، كالبِشْنين [١] ذى البتلات التى لا يحصى عديدها .

ثم قال لهُ معلمٌ ، هات لنا كلمة فى التعليم .

فقال :

ما من رجل يستطيع أَن يعلن لكم شيئاً غير ما هو مستقر فى فجر معرفتكم وأنتم غافلون عنهُ .

أما المعلم الذى يسير فى ظل الهيكل محاطاً باتباعهِ ومريديهِ ، فهو لا يعطى شيئاً من حكمتهِ ، بل انما يعطى من ايمانهِ وعطفهِ ومحبتهِ .

لأنهُ اذا كان بالحقيقة حكيماً فانهُ لا يأمركم أن تدخلوا بيت حكمتهِ ، بل يقودكم بالأحرى الى عتبة فكركم وحكمتكم .

فان الفلكىَّ يستطيع أن يقص عليكم شيئاً من معرفتهِ لنظام السماء ، ولكنهُ لا يقدر أَن يعطيكم معرفتهُ .

---

(١) البشنين نبات يقوم على ساق ولا ورق له . ويسميه المصريون عرائس النيل .

والموسيقيّ يستطيع أن ينشدكم أجمل مافى العالم من الأناشيد والأنغام ، ولكنهُ لا يستطيع أن يمنحكم الاذن التى تضبط النظام فى النغم ولا الصوت الذى يوجد الألفة فى الالحان .

والرياضيُّ النابغ فى ضبط الارقام يستطيع أن يوضح لكم عدد الموازين والمقاييس وخصائص كل منها ، ولكنهُ لا يستطيع أن يمنحكم معرفتهُ ،

لأن الوحي الذى يهبط على رجل مًّا لا يعير جناحيهِ لغيرهِ ،

وكما ان لكل منكم مقاماً منفرداً فى معرفة الله اياهُ ، هكذا يجب عليهِ ان يكون منفرداً فى معرفتهِ لله وفى ادراكهِ لاسرار الارض .

ثم قال لهُ شابٌ ، هات حدثنا عن الصداقة :

فاجاب وقال :

ان صديقك هو كفاية حاجاتك .

هو حقلك الذى تزرعهُ بالمحبة وتحصدهُ بالشكر .

هو مائدتك وموقدك .

لانك تأتى اليهِ جائعاً ، وتسعى وراءهُ مستدفئاً .

****

فاذا اوضح لك صديقك فكرَهُ فلا تخشَ ان تصرّحَ بما فى فكرك من النفى او أن تحتفظ بما فى ذهنك من الايجاب .

واذا صمت صديقك ولم يتكلم فلا ينقطع قلبك عن الاصغاء الى صوت قلبهِ :

لان الصداقة لا تحتاح الى الالفاظ والعبارات فى انماء جميع الافكار والرغبات والتمنيات التى يشترك الاصدقاء بفرح عظيم فى قطف ثمارها اليانعات .

وان فارقتَ صديقك ، فلا تحزن على فراقهِ :

لان ما تتعشقهُ فيهِ ، اكثر من كل شىء سواهُ ، ربّما يكون فى حين غيابهِ اوضح فى عينى محبتك منهُ فى حين حضورهِ ،

لان الجبل يبدو للمتسلق لهُ اكثر وضوحاً وكبراً من السهل البعيد .

ولا يكن لكم فى الصداقة من غاية ترجونها غير ان تزيدوا فى عمق نفوسكم .

لان المحبة التى لارجاءَ لها ، سوى كشف الغطاء عن اسرارها، ليست محبةً ، بل هى شبكة تلقى فى بحر الحياة ولا تمسك الاَّ غير النافع .

***

وليكن أَفضل ما عندك لصديقك .

فان كان يجدر بهِ أَن يعرف ضرر حياتك ،

فالاجدر بك ايضاً ان تظهر لهُ مدها .

لانهُ ماذا ترتجى من الصديق الذى تسعى اليهِ لتقضيَ معهُ ساعاتك المعدودة فى هذا الوجود ؟

فاسعَ بالاحرى الى الصديق الذى يحيي ايامك ولياليك .

لان لهُ وحدهُ قد أُعطى ان يكمل حاجاتك ، لا لفراغك ويبوستك .

وليكن ملاك الافراح واللذّات المتبادلة مرفوعاً فوق حلاوة الصداقة .

لان القلب يجد صباحهُ فى الندى العالق بالصغيرات ، فينتعش ويستعيد قوتهُ .

ثم قال لهُ عالمٌ ، هات حدثنا عن الكلام .

فاجاب وقال :

انكم تتكلمون عند ما تُوصدُ دونكم أَبواب السلام مع افكاركم :

وعند ما تعجزون عن السكنى فى وحدة قلوبكم ، تقطنون فى شفاهكم ، والصوت يلهيكم ويسليكم .

وفى الكثير من كلامكم يكاد فكركم يقضى ألماً وكآبة .

لان الفكر طائرٌ من طيور الفضاء ، يبسط جناحيهِ فى قفص الالفاظ ولكنهُ لا يستطيع ان يُحلّق طائراً .

*
* *

انّ بينكم قوماً يقصدون الثرثار المهذار ، ضجراً من الوحدة والانفراد :

لان سكينة الوحدة تبسط أمام عيونهم صورة واضحة لذواتهم العارية يرتعدون لدى رؤيتها فيهربون منها .

ومنكم الذين يتكلمون ، ولكنهم عن غير معرفة ، وبدون سابق قصد ، يظهرون حقيقة لا يدركونها هم انفسهم .

ومنكم الذين أودع الحقُّ قلوبَهم ، ولكنهم يأبون ان يلبسوهُ حُلَّةَ اللفظ

وفى أَحضان هؤلاء تقطن الروح فى هدوء وسكون .

* * *

فاذا رايت صديقك على جادة الطريق ، او جمعتك بهِ ساحة المدينة ، فدع الروح التى فيك تحرك شفتيك وتدير لسانك .

أَفسحِ المجال للصوت الذى فى اعماق صوتك فيخاطب أذنَ أذنهِ .

لان نفسهُ تحتفظ بسرّ قلبك كما يتذكر فمهُ طعم الخمرة الطيبة ، وإن تُنوسى لونها وتحطمت الكأس التى حملتها .

ثم قال لهُ فلكيٌّ، ايها المعلم، ماذا تعتقد بالزمان ؟

فاجابهُ قائلا :

أَ أنت تريد أن تقيس الزمان غير المحدود . الذي لا قياس لهُ .

وتود ان تطبق سلوكك وتعين مسالك روحك على مقتضى الساعات والفصول .

بل انت تريد ان تجعل الزمان جدولاً تجلس الى حافتهِ وتراقب انسجام مياههِ وتصغى الى خريرها .

* * *

بيد ان غير المقيد فيك بالزمان يعرف حقيقة ان الحياة لا تعرف حدود الزمان ،

وأَنْ ليس امس سوى ذكرى اليوم ، وليس الغد سوى حلم اليوم .

وأَن القوة التى تترنم وتتأمل فيك لا تزال قاطنة ضمن حدود تلك الثانية الاولى التى فرّقت الكواكب فى الفضاء .

وهل بينكم رجلٌ لا يشعر ان قوتهُ على المحبة فائقة الحدود ؟

بل من هو الذى لايشعر بتلك المحبة ، غير المحدودة ، المحصورة فى صميم كيانهِ ، ولا ينتقل من فكر محبةالى فكر محبة ، ومن أعمال محبة الى أعمال محبة غيرها ؟

والزمان ، اليس الزمان ، كالمحبة ، لاينقسم ولايستقصى؟

* * *

ولكن اذا شئتم ان تقسموا الزمان الى فصول مختلفة فى افكاركم ، فاجعلوا كل فصل من فصولهِ يحيط بجميع الفصول الاخرى ،

واجعلوا الحاضر يعانق الماضى بالتذكارات ، والمستقبل بالحنين والتشوقات .

ثم قال لهُ أحدُ شيوخ المدينة ، هات حدثنا عن الخير والشر .

فاجاب قائلاً :

انى استطيع ان احدثكم عن الخير ، لا الشر الذى فيكم .

لانهُ اليس الشر هو بعينهِ الخير المتألم آلاماً مبرّحة من تعطشهِ ومجاعتهِ ؟

فانى الحق اقول لكم ، ان الخير اذا جاع سعى الى الطعام ولو فى الكهوف المظلمة ، وان عطش فانهُ يشرب حتى من المياه الراكدة المنتنة .

*
* *

أَنت صالحٌ ، ياصاح ، اذا كنت واحداً مع ذاتك .
واذا لم تكُ واحداً مع ذاتك فانت لستَ بالشرير .
لان البيت المنقسم على ذاتهِ ليس مغارةً للصوص ، ولكنهُ بيتٌ منقسمٌ على ذاتهِ لا اكثر ولا أقل .
والسفينة التى تضيع سُكانها تهيم فى البحار بين الجزائر تحدق بها الاخطار من كل جهة ولكنها لا تغرق الى قعر البحر .

*
* *

انت صالحٌ ، ياصاح ، اذا جاهدت لكى تعطى الناس من ذاتك .
ولكنك لست بالشرير اذا سعيت وراءَ منفعة نفسك .
لانك فى سعيك وراء منفعة نفسك تشبه جذر الشجرة

الذي يريق دموعهُ على الارض ثم يمتص الحليب من ثدييها .

الحق اقول لك ، ان الثمرة لاتستطيع ان تقول للجذر ،
« كن مثلي ناضجاً ، جميلاً ، جوّاداً ، يبذل كلّ ما فيهِ لاجل غيره — »

لان العطاء حاجة من حاجات الثمرة لاتعيش بدونها ،
كما ان الاخذ حاجة من حاجات الجذر لايحيي بغيرها .

*
* *

انت صالحٌ ، ياصاح ، اذا كنت تبلغ الى كمال يقظتك في خطابك ،

بيد انك لستُ بالشرير اذا نمت وكان لسانك يهـذر من غير مرمى .

لأنّ الـكلام ، وان كان مجلبة للعثرات ، لابد ان يشدّد لساناً ضعيفاً .

*
* *

انت صالحٌ ، ياصاحِ ، اذا كنت تسـير الى محجتك ،
راسخ العزم ، ثابت الخطى .

غير انك لستَ بالشرير ، اذا كنت تمشى الى محجتك متلكئاً .

لان العُرج انفسهم لا يسيرون الى الوراء .

ولكنك ، وانت صحيح القدم قوىُّ الجسد ، انظر أَلاَّ تعرجَ امام العُرجِ وانت تحسب ذلك رقة وظرفاً .

*
* *

أَنت صالحٌ بطرق عديدة ياصاح ، واذا لم تكن صالحاً فانك لستَ بالشرير ،

بل انت كسولٌ متراخٍ .

وياليت الظباءَ تستطيع ان تعلّم السلاحف البطيئة السرعة والرشاقة .

*
* *

اجل ، ان الخير الذى فيك انما هو فى حنينك الى ذاتك الجبارة : وهذا الحنين فيكم جميعكم .

غير انهُ يشبه فى البعض منكم سيلاً جارفاً يجرى بقوة منحدراً الى البحر ، فيحمل معهُ اسرار التلال والاودية واناشيد الاحراج والجنان .

وهو فى غيرهم اشبه بجدول صغير يسير فى منبسط من الارض يريق ماءهُ فى الزوايا والمنعرجات ولذلك يطول بهِ الزمان قبل ان يصل الى الشاطئ .

ولكن لا يقلْ ذو الحنين الكثير الى ذى الحنين القليل ، « لماذا انت كسيحٌ بطيء ؟ »

لان الصالح الصالح لايسألُ العراة ، « أَين ثيابكم ؟ » ولا الغرباء ، « اين منازلكم ؟ »

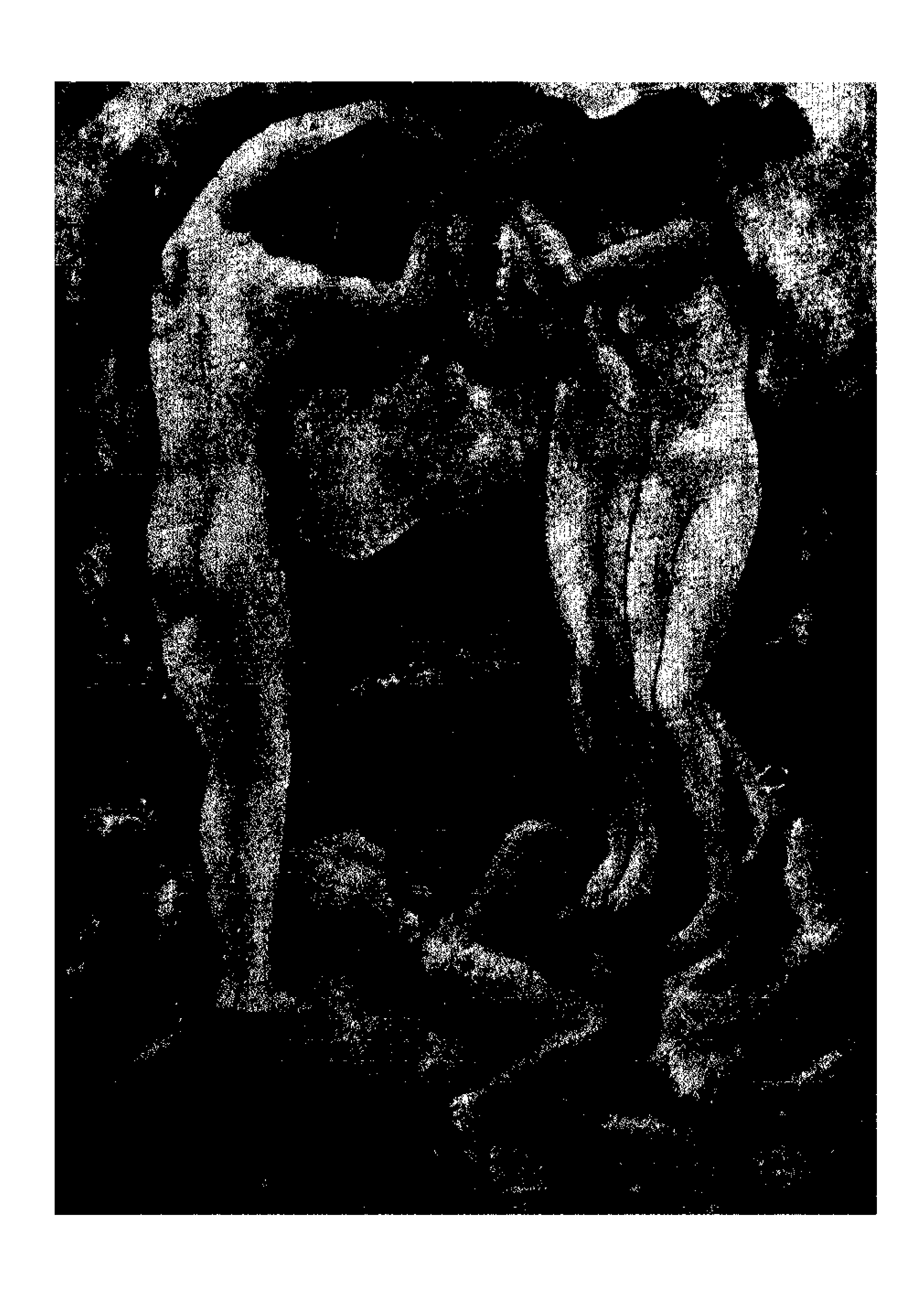
ثم قالت لهُ الكاهنة ، هات حدثنا عن الصلاة .

فاجاب وقال :

انكِ تصلين فى ضيقتكِ وفى حاجتكِ :

ولكن حبذا لو انكِ تصلين فى كمال فرحكِ ووفرة خيراتك .

***



وهل الصلاة غير اتساع ذاتكِ فى الاثير الحيّ ؟

فاذا كنتِ تتعزين فى ان تسكبي كأس ظلمتكِ فى الفضاء ، فانكِ ولا شك تفرحين ايضاً فى ان تسكبي فيه فجرَ فؤادكِ .

واذا كنتِ لاتستطيعين ان تمسكي عن البكاء عند ما تدعوكِ نفسك الى الصلاة ، فالاجدر بنفسكِ ان تنخسك بمنخس حادٍ مرة بعد مرة ، على رغم الدموع المتساقطة على وجنتيكِ ، لكي تأتى الى الصلاة فرحةً باسمة .

واذا صليتِ ، فانتِ ترتفعين بروحكِ لكي تجتمعي فى تلك الساعة بارواح المصلين ، الذين لاتستطعين ان تجتمعي بهم بغير الصلاة .

لذلك فلتكن زيارتكِ لذلك الهيكل غير المنظور مدعاةً للهيام السماوى والشركة الروحية السعيدة .

لانكِ اذا دخلت الهيكل ولا غاية لكِ سوى السؤال فانكِ لن تنالى شيئاً :

وان دخلتِ الهيكل لـكى تظهرى وفرة اتضاعكِ وخشوعكِ فانكِ لن تجدى رفعة :

بل ، لو جئتِ الهيكل وانتِ ترجين ان تلتمسى خيراً لغيركِ من الناس فانكِ لن تجابى الى سؤالك .

لانهُ يكفيكِ ان تدخلى الهيكل من غير أَن يراكِ أَحد.

*
* *

لااستطيع أَن أُعلمكِ الصلاة بالالفاظ .

لان الله لايصغى الى كلماتكِ ما لم يضعها تعالى اسمهُ على شفتيكِ وينطق بها بلسانكِ .

ولا اقدر ان اعلمكِ صلاة البحار والاحراج والجبال .

بيد انكِ ، وانتِ ابنة الجبال والاحراج والبحار ، تستطعين ان تجدى هذه الصلاة محفورة على صفحات قلبكِ ،

فاذا أصغيت فى سكينة الليل سمعتِ الجبال والبحار والاحراج تصلى بهدوء وخشوع :

« ربنا والهنا ، ياذاتنا المجنّحة ،

« اننا بارادتك نُريد ،

« وبرغبتك نرغب ونشتهى .

« بقدرتك تحول ليالينا ، وهى لك ، الى ايام هى لك ايضاً .

« اننا لانستطيع ان نلتمس منك حاجةً ،

« لانك تعرف حاجاتنا قبل ان تولد فى اعماقنا .

« انت حاجتنا : وكلما زدتنا من ذاتك زدتنا من كل شىء .

حينئذٍ دنا منهُ ناسك يزور المدينة مرةً فى السنة ، وقال لهُ ، هات حدثنا عن اللذة .

فاجاب وقال :

اللذة انشودة الحرية ،

ولكنها ليست حرية بذاتها .

اللذة زهرة رغباتكم ،

ولكنها ليست ثمرة لها .

اللذة عمق ينشد علواً ،
ولـكن لاهي بالعمق ولا هي بالعلو .
اللذة جناحٌ قد أفلت من قفصهِ ،
ولـكنها ليست فضاءً حراً طليقاً .
أجل ، ان اللذة بالحقيقة انشودة الحرية .
وانهُ ليطربني أن تترنموا بها في اعماق قلوبكم : ولـكنني لا آذن لـكم ان تستسلموا بقلوبكم للفناء .

* * *

ان فريقاً من احداثـكم يسعون وراءَ اللذة سعيهم وراء كل شيء ، ولذلك يحكم عليهم بالقصاص والتأديب .
أما انا فلا ادينهم ، ولا احكم عليهم . ولـكنني اسألهم : أن يُفتشوا وينقبوا .
لانهم سيجدون اللذة في تفتيشهم ، ولـكنهم لن يجدوها وحدها فقط :
فان لها سبع شقيقات ، احقرهن أوفر جمالاً منها .

وانتم ألم تسمعوا بذلك الرجل الذى كان يحفر الارض لكى يستخرج الجذور من أعماقها فوجد كنزاً عظيما ؟

*
* *

وفريق آخر من شيوخكم يتذكرون لذّات شبابهم آسفين ، كانما هى جرائم اقترفوها فى اوقات السكر والجهالة .

ولكن الأسف هو بالحقيقة غمامة تنم الفكر ولا تؤدبه .

ولذلك يجدر بهم ان يتذكروا لذاته بالحمد والثناء كما يتذكرون حصاد الصيف .

ولكن اذا كان الاسف يعزيهم فلا بأس ان يتعزّوا به .

*
* *

وهنالك فريق ثالث ممن ليسوا بالاحداث لكى يجاهدوا مفتشين عن لذات جديدة ولا بالشيوخ لكى يتذكروا لذات شبابهم ،

ولكنهم لشدة خوفهم من عناء الجهاد فى التفتيش

والالم فى التذكارات يُعرضون عن جميع اللذات ، لئلا يهملوا الروح او يجدفوا عليها .

غير ان لهم من هذا الاعراض بعينهِ لذة لانفسهم .

ولذلك فهم ايضاً يجدون كنزاً لذواتهم مع انهم يحفرون لاجل الجذور بايد مرتعشة .

ولكن هل لك ان تخبرنى ، وانت الناسك الحكيم ، من هو الذى يستطيع ان يكدّر على الروح صفوها ؟

أَيستطيعُ البلبلُ ان يعكر صفو سكينة الليل ، أَم الحباحب نورَ السماء ؟

وهل يقدرلهيبُ نارك أو دخانها أن يثقل كاهل الريح ؟

ام هل تعتقد أن الروح بركة هادئة وفى استطاعتك كلما خطر لك ان تزعج هدوءها بعصاك ؟

* * *

كلما انكرت على ذاتك التمتع بلذة ما تغلق بيديك على تلك اللذة فى مستودعات كيانك .

ومَنْ يدرى هل تعود اللذة التى ترفضها اليوم فتترقب عودتك اليها فى الغد ؟

لان جسدك يعرف حاجاتهِ الضرورية وميراثهُ الحقيق ،
فلا يستطيع احدٌ ان يخدعهُ .

اجل ، ان جسدك هو قيثارة نفسك ،

وانت وحدك تستطيع ان تخرج منها أنغاماً فنانة او أصواتاً مشوشة مضطربة .

* * *

ولعلك تسأل فى قلبك قائلاً ، « كيف نستطيع ان نميز بين الصالح والشرير من اللذات » ؟

فاذهب الى الحقول والبساتين وهنالك تتعلم ان لذة النحلة قائمة فى امتصاص العسل من الزهرة ،

ولكن لذة الزهرة ايضاً تقوم بتقديم عسلها للنحلة .

والنحلة تعتقد ان الزهرة ينبوع الحياة ،

والزهرة تؤمن بان النحلة هى رسول المحبة المحيية ،

والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان ان اقتبال اللذة وتقديمها حاجتان لا بد منهما وافتتان لا غنى للحياة عنهُ .

***

اجل ، يا ابناء اورفليس ، كونوا فى لذاتكم كالنحل والأزهار

ثم قال لهُ شاعرٌ ، هات لنا شيئاً عن الجمال .

فاجابهُ قائلاً :

أين تفتش عن الجمال ، وكيف تقدر ان تهتدى اليهِ مالم يكن هو نفسهُ طريقاً لك ودليلاً ؟

وكيف تستطيع ان تتحدث عن الجمال مالم ينسج لك ثوباً لائقاً بخطابك ؟

***

فالحزين المتالمُ يقول ، « الجمال رقة ولطف ، وهو يمشى بيننا كالأم الفتية الحيية من جلالها . »

والغضوبُ يقول ، « كلا ، بل الجمال قوةٌ وبطش ، فهو

كالعاصفة يهز الارض تحت اقدامنا والسماء فوق رؤوسنا . »

والتَعِبُ الملولُ يقول ، « ان الجمال لطيف المناجاة يتكلم في ارواحنا ويتموج صوتهُ في سكون اذهاننا كما يرتعش النور الضئيل خوفاً من الظل الظليل . »

غير ان القَلِقَ المضطرب يقول ، « قد سمعنا الجمال يصيح باعلى صوتهِ بين الجبال ،

يرافق صوتهُ وقع الحوافر ، وخفقان الاجنحة وزمجرة الاسود . »

* * *

وعند انتصاف الليل يقول حارس المدينة ، « سيبزغ الجمال مع الفجر من المشرق . »

وعند الظهيرة يقول العمال وعابرو السبيل ، « قد راينا الجمال يطل على الارض من نوافذ المغرب . »

* * *

وفي الشتاء يقول جامعو الثلوج ، « سيأتي الجمال مع

الربيع وهو يقفز على التلال . »

وفى الصيف يقول الحصادون ، « قد رأينا الجمال يرقص مع اوراق الخريف ، وشاهدنا كومة من الثلج على رأسهِ . »

*
* *

كل هذا سمعتكم تقولونهُ فى الجمال ،

غير انكم بالحقيقة لم تقولوا فيهِ كلمةً ، وانما تحدثتم بحاجاتكم غير المكملة ، والجمال ليس بالحاجة غير المكملة بل هو انشغاف وافتتان .

اجل ، وليس الجمال فماً متعطشاً او يداً ممدودة ،

بل هو قلب متلهبٌ ، ونفسٌ مفتونة مسحورة .

وليس بالصورة التى ترغبون فى رؤيتها أو الانشودة التى ترجون سماعها ،

بل هو صورة تبصرونها ولو اغمضتم عيونكم وانشودة تسمعونها ولو اغلقتم آذانكم .

وليس بالعصارة الجارية فى عروق الاشجار ، ولا

بالجناح المتعلق فى المخالب ،

بل هو بستان تزينهُ الازهار الى الابد ، وجوقة من الملائكة ترفرف باجنحتها الى منتهى الدهور .

****

نعم ، يا ابناء اورفليس ، ان الجمال هو الحياة بعينها سافرةً عن وجهها الطاهر النقى .

ولكن انتم الحياة وانتم الحجاب .

والجمال هو الابدية تنظر الى ذاتها فى مرآة .

ولكن انتم الابدية وانتم المرآة .

ثم دنا منه كاهن شيخ وقال له ، هات حدثنا عن الدين .

فاجاب قائلاً :

وهل تكلمت اليوم فى موضوع آخر غير الدين ؟

أليس الدين كل ما فى الحياة من الاعمال والتاملات ؟

أليس الدين كل ما فى الحياة مما ليس هو بالعمل ولا بالتأمل ، بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس ابداً ،

وان عملت اليدان فى نحت الحجارة او ادارة الانوال ؟

مَنْ يستطيع ان يفصل ايمانهُ عن أَعمالهِ ،وعقيدتهُ عن مهنتهِ ؟

مَنْ يستطيع ان يبسط ساعات عمرهِ امام عينيهِ ،قائلاً ، « هذه لله ، وهذه لى ، هذه لنفسى ، وهذه لجسدى؟ »

فان جميع ساعات الحياة اجنحة ترفرف فى الفضاء منتقلة من ذات الى ذات .

وان من ينظر الى فضيلتهِ نظرتهُ الى افضل حلة يلبسها فالاجدر بهِ ان يسير بين الناس عارياً ،

لان الريح والشمس لا تمزقان بشرتهُ .

وكل من يقيد سلوكهُ وتصرفهُ بقيود الفلسفة والتقليد انما يحبس طائر نفسهِ الغرّيد فى قفص من حديد .

لان انشودة الحرية لا يمكن ان تخرج من بين العوارض والقضبان .

وكل من يعتقد أَن العبادة نافذة يفتحها ثم يُغلقها

فهو لم يبلغ بعدُ الى هيكل نفسهِ الذى نوافذهُ مفتوحة من الفجر الى الفجر .

*
* *

ان حياتكم اليومية هى هيكلكم وهى ديانتكم .
فخذوا معكم كل ما لكم عند ما تدخلون هيكلها .
خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور ،
وكل ما لديكم من الآلات التى صنعتموها رغبة فى قضاء حاجاتكم او سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم
لانكم لاتستطيعون ان ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ،
ولا تقدرون ان تنحدروا بتصرفاتكم الى أدنى من خيباتكم .
وليرافقكم جميع معارفكم من أبناء الانسان :
لانكم لاتستطيعون فى عبادتكم ان تحلقوا فوق آمالهم
ولا أن تصعوا ذواتكم الى أحقر من يأسهم .

*
* *

وإن شئتم ان تعرفوا ربكم ، فلا تُعنوا بحل الاحاجى والالغاز .

بل تاملوا فيما حولكم تجدوهُ لاعباً مع أولادكم .

وارفعوا انظاركم الى الفضاء الوسيع تبصروهُ يمشى فى السحاب ، ويبسط ذراعيهِ فى البرق ، وينزل الى الارض مع الامطار .

تاملوا جيداً ، تروا ربكم يبتسم بثغور الازهار ، ثم ينهض ويحرّك يديهِ بالاشجار .

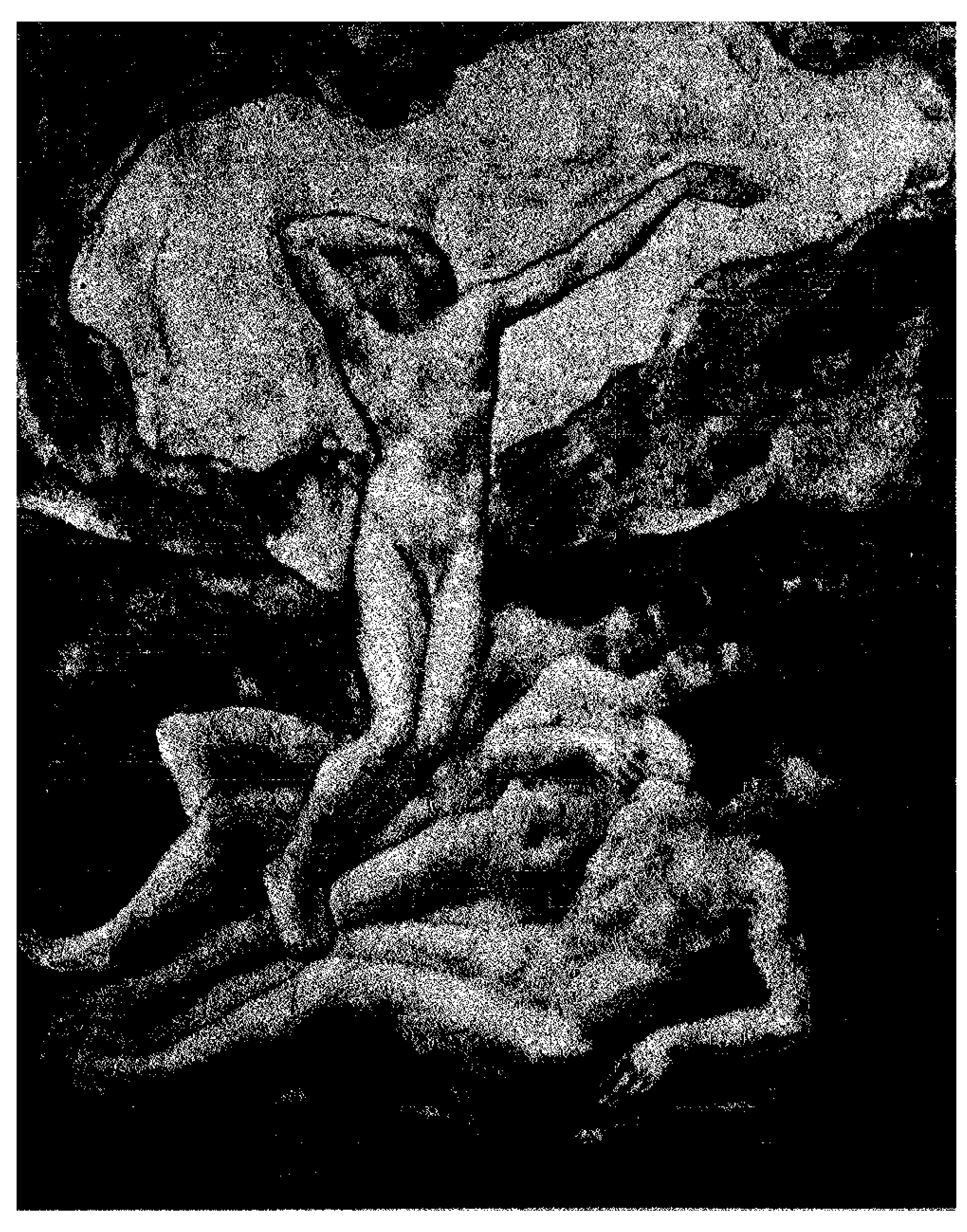
ثم قالت لهُ ألمطرة ، نودّ ان تحدثنا الآن عن الموت .

فقال لها :

انكم تريدون أن تعرفوا اسرار الموت ،

ولكن كيف تجدونها ان لم تسعوا اليها فى قلب الحياة ؟

لان البومة التى لاتفتح عينيها الا فى الظلمة ، البومة العمياء عن نور النهار ، لاتستطيع ان تنزع الحجاب عن اسرار النور .



صفحة ٩٦

فاذا رغبتم بالحقيقة فى ان تنظروا روح الموت ،فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لنهار الحياة .

لان الحياة والموت واحدٌ ، كما ان النهر والبحر واحدٌ ايضاً .

*
* *

ففى أَعماق آمالكم . ورغباتكم تتكىء معرفتكم الصامتة لما وراء الحياة :

وكما تحلم الحبوب الهاجعة تحت الثلوج بالربيع ، هكذا تحلم قلوبكم بربيعها .

لذلك فلتكن ثقتكم عظيمةً بالاحلام ، لان بوابة الابدية مختفية فيها .

أَمَّا خوفكم من الموت فهو اشبه بارتعاش الراعى الواقف أمام الملك الذى يريد ان يرفع يمينهُ فوقهُ لكى يكرمهُ وينعم عليهِ بوسام الرضى والفخر .

افلا يفرحُ الراعي مع ارتعاشهِ لان مليكهُ يقلدهُ وسام الشرف والرضى ؟

ولكن الا يشعر مع ذلك بارتعاشهِ وخفقان قلبهِ ؟

*
* *

وهل موت الانسان هو اكثر من وقوفهِ عارياً في الريح وذوبانهِ في حرارة الشمس ؟

أم هل انقطاع التنَفُّس ، غير تحرير النفَس من دورانهِ المتواصل ، لكي يستطيع ان ينهض من سجنهِ ويحلق في الفضاء ساعياً الى خالقهِ من غير قيد ولا تعويق ؟

*
* *

انكم لاتستطيعون ان تترنموا بالأناشيد حتى تشربوا من نهر الصمت .

ولا تستطيعون ان تباشروا الصعود الى الجبال حتى تبلغوا الى قنتها .

ولن تقدروا ان ترقصوا حتى تتسلَّم الارض جميع اعضائكم .

وكان المساء .

فقالت العرافة المطرة ، مبارك هذا اليوم وهذا المكان الذى جمعنا بك . ومباركة روحك التى خاطبت أرواحنا .

فاجاب وقال ، « وهل انا الذى تكلمت ؟ ألم أ كُنْ انا سامعاً نظيركم؟

*
* *

ثم نزل عن درجات الهيكل ومشى ، فتبعهُ الشعب باسرهِ .

وظل يجد فى سيرهِ والشعب يلحق بهِ حتى وصل الى المرفإ ، فصعد الى سفينتهِ ووقف على ظهرها

حينئذ رفع صوتهُ ، والشعب ينظر اليهِ ، وقال لهم :

يا ابناء اورفليس ، ان الريح تأمرنى ان افارقكم .

ومع اننى لستُ كالريح عجولاً ، فاننى مرغمٌ ان اطيع اوامرها .

لاننا نحن الهائمين ، الذين ينشدون ابداً اشد الطرق وحدةً ، لا نبدأ اعمال نهار مّا ، عند ما نفرغ من نهار غيره .
ولا يجدُنا شروق شمس حيث تركنا الغروب الذى تقدمه ؟
لاننا ، وان نامت الارض ، مستيقظون نوالى مسيرنا .
نحن بذور نبات غريب عجيب ، وفى بلوغنا واكتمال نموّ قلوبنا قد وُهِبنا منحةً للريح فتفرقنا على وجه الارض .

*
* *

قليلة كانت ايامى بينكم ، وأقل منها كلماتى التى تركتها لكم .
ولكن اذا تلاشى صوتى فى آذانكم وزالت محبتى من قلوبكم فحينئذ آتى اليكم سريعاً ،
واخاطبكم ثانيةً بقلب اوفر عطفاً من قلبى وشفتين أجرى إثماراً للروح من شفتى .
اجل ، اننى سأرجع مع المدّ ،
فان حجبنى الموت عنكم الآن ، وضمنى الصمتُ العظيم بين طيات سكينته ، فاننى سأنشدُ ادراككم مرة أخرى .

ولن تذهب أتعابي فى ذلك الحين عبثاً .

فان كنت قد خاطبتكم اليوم بالحق الصريح ، فانَّ هذا الحق سيظهر ذاتهُ لكم فى ذلك اليوم بصوت انقى من صوتهِ اليوم ، وبكلمات اقرب الى افكاركم من كلماتهِ اليوم .

*
* *

انى ماضٍ مع الريح ، يا أَبناء اورفليس ، ولكن لن أهبط الى العالم السفلى ، الى الفراغ المرعب :

فاذا لم يكن هذا اليوم قد أَكمل حاجاتكم وأَفعمكم من محبتى ، فليكن موعداً ليوم آخر .

فان حاجات الانسان تتبدل ، ولكن محبتهُ لا تتغير ، ومثلها رغبتهُ فى ان تشبع المحبة حاجاتهِ .

فاعلموا اذن انى سارجع اليكم من عالم الصمت والسكينة .

لان الضباب الذى يفارق الأرض عند بزوغ الفجر ، من غير أَن يترك سوى قطرات صغيرة من الندى فى الحقول ، انما يرتفع فى الجو لكى يتجمع هنالك فيولّف السحاب الذى

لا يلبث ان يعود الى الارض مطراً غزيراً .

وقد كنت بينكم مثل هذا الضباب .

ففي سكينة الليل كنت أمشي في شوارعكم ، وكنت أدخلُ بروحي الى أعماق منازلكم ،

وكانت نبضات قلوبكم تتردد في قلبي ، وسحائب لهاثكم تنتشر على وجهي ، وقد عرفتكم بعُجَركم وبُجَركم .

نعم ، قد عرفت فرحكم وحزنكم . وفي هجوعكم كانت احلامكم احلاماً لي .

وكثيراً ما كنت بينكم بحيرةً بين الجبال .

فكانت ترتسم على صفحات مرآتي قننكم الشاهقة ، ومنحدراتكم المتعرجة ، حتى قطعان افكاركم ورغباتكم العابرة عليها .

وكان ضحك اولادكم يجري الى سكينتي مع مياه الجداول ، وكان حنين شبانكم وشاباتكم يأتي اليّ مع مجاري الانهار .

ومع ان الجداول والانهار كانت تبلغ الى اعماق فانها لم تكن تنقطع البتة عن الغناء .

***

ولكن هنالك ما هو أحلى من الضحك وأعذب من الحنين بين من جاءَ اليَّ منكم .

الا وهو الكائن غير المحدود فيكم ،

الانسان البالغ العظمة فيكم الذى لستم سوى أنسجة وعضلات فى كيانهِ ،

والمرنم الذى ليس غناؤكم امام غنائهِ سوى اختلاج وهينمة .

وانتم لا تعرفون العظمة الاَّ بهذا الانسان العظيم الذى فيكم ،

وعند ما رايتهُ رايت حقيقتكم ، وأحببتكم .

لانهُ هل فى الوجود علوٌّ او بعد تصل اليهما المحبة ولا يحيط بهما فى دائرة كيانهِ العظيمة الاتساع ؟

ام هل هنالك تصورات او تمنّياتٌ او أحلام تستطيع ان تسمو فتبلغ الى أقصى ارتفاعهِ ؟

اجل ، ان هذا الانسان العظيم هو بالحقيقة كالسنديانة الجبارة المغطاة ببراعم التفاح الجميلة .

فقدرتهُ تقيدكم بالارض ، وشذاهُ يرفعكم الى اعالى الفضاء ، وفى عزمهِ وصبرهِ على عواصف الطبيعة انتم خالدون .

***

قد أُخبرتُمْ فيما مضى انكم كالسلسلة ، ضعفاء كاضعف حلقة فى كيانكم .

غير ان هذا انما هو نصف الحقيقة . فانتم ايضاً اقوياء كاقوى حلقة من سلسلتكم .

لاننا اذا حكمنا عليكم باصغر اعمالكم كنا كمن يحكم على قوة البحر بما فى زبدهِ من الضعف وسرعة الزوال .

وان حكمنا عليكم بخيبتكم كنا كمن يلوم الفصول لتعاقبها وعدم ثباتها .

***

اجل ، انكم بالحقيقة كالاوقيانوس العظيم ،

فمع ان سفناً عظيمة تنتظر مد البحر وجزره على شواطئكم ،
فانتم كالاوقيانوس ، لا تستطيعون ان تعجلوا مدكم وجزركم .
وانتم كالفصول ايضاً يا ابناء اورفليس ،
فانكم تذكرون ربيعكم فى شتائكم .
ولكن الربيع لا يذكركم ، بل يبتسم لكم فى غفلته ،
من غير ان يغضب او يتعكر صفوه .

ولا يخطر لكم انى اقول لكم هذا لكى أحملكم على
ان تهمسوا بعضكم لبعض قائلين ، « قد أجاد فى مديحنا
والثناء علينا . ولم ير سوى الصالح فينا . »

فاننى أنقل اليكم بالفاظى ، ما تدركونه انتم بافكاركم .
وهل المعرفة اللفظية سوى ظل للمعرفة غير اللفظية ؟
لان افكاركم وكلماتى ماهى عند التحقيق الا امواج
تقذف بها بحيرة الذاكرة المختومة التى تحتفظ بدواوين
ماضينا وماجرياته ،

وحوادث الايام المنصرمة عند مالم تكن الارض

تعرفنا ، وكانت تجهل ذاتها ايضاً ،

واحلام الليالى عند ما كانت الارض خربة خاوية خالية .

*
* *

قد جاءكم الحكماء قبلى لكى يقدموا لكم من حكمتهم ،
اما انا فقد اتيت اليكم لكى اغرف من معين حكمتكم .

وها أنذا قد وجدت ماهو أعظم من الحكمة .

قد وجدت روحاً ملتهبة فيكم ما برحت تستزيد جمع مبعثرات ذاتها ،

غير انكم كنتم وما زلتم غافلين عن اتساعها وتعاظمها ،
تنوحون وتبكون على ايامكم الزائلة .

فان الحياة تفتش عن الحياة فى أجسام الذين يخافون القبور .

*
* *

ولكن لا قبور ههنا .

لان هذه الجبال والسهول انما هي بالحقيقة سريرٌ ومرقاة .

فاذا قادتكم خطواتكم الى الحقل الذى وضعتم فيهِ اسلافكم فتأملوا جيداً فى جميع جهاته ، تروا ذواتكم ترقصون مع أولادكم جنباً الى جنب .

فانى الحق اقول لكم ، انكم كثيراً ما تفرحون وانتم لاتعرفون .

*
* *

وآخرون جاءوا اليكم وعللوكم بالمواعيد الذهبية التى تبنون عليها صروح ايمانكم فوهبتم لهم ثروةً وقوةً وعظمة .

اما انا فقد اعطيتكم أحقر موعد، ولكنكم اظهرتم نحوى أريحية لم تظهروها لسواى .

فقد اعطيتمونى تعطشى الشديد للحياة .

فانى اصارحكم القول انهُ مامن عطية فى هذا العالم أجزل فائدة للانسان من العطية التى تحول كل مافى كيانهِ من الاميال والرغبات الى شفتين محترقتين عطشاً ، وتجعل

حياتهُ جميعها ينبوعاً حياً باقياً .

وهو ذا نخرى وأجرى ، —

فى اية ساعة جئت الينبوع متعطشاً اجد الماء الحىّ المتدفق من فم الينبوع متعطشاً ايضاً :

فيشربنى هذا الماء كما اشربهُ .

* * *

وقد خُيّل الى البعض منكم انى عيوفٌ حيىٌّ فلا أقبل عطيةً من عطاياكم .

على انى بالحقيقة أكره قبول الاجور ولكننى لا أرفض العطايا .

وانهُ غير خافٍ عليكم انى كنت أتقوت بأثمار العليق والتوت بين التلال فى حين انكم كنتم ترغبون فى ان اجالسكم حول موائدكم ،

وكنت أنام فى رواق الهيكل فى حين ان كلاً منكم كان يفرح لو يتاح لهُ ان يأوينى فى بيتهِ ،

ولكن اليست محبتكم الشديدة الممزوجة بدموع العناية بايامى وليالىَّ هى التى جعلت الطعام حلواً فى فمى وحفَّت نومى بالوحى والاحلام ؟

* * *

لاجل هذا اباركـكم من اعماق قلبى :

لانكم تعطون كثيراً ولا تعرفون انكم تعطون شيئاً .

الحق اقول لكم ، ان اللطف الذى ينظر الى ذاته فى مرآةٍ ينقلبُ حجراً .

والعمل الصالح الذى يسمّى نفسهُ باسماء جميلة يصير والداً للعنة كريهة .

* * *

وقد دعانى فريق منكم متوحداً ثملاً بمحبة وحدتى ، اما انتم فقلتم بعضكم لبعض ، « لا تبالغوا فى عذلهِ وملامتهِ ، فانهُ يحب ان يؤلف مجلسهُ من اشجار الأحراج وليس من ابناء الانسان .

وهو يستلذ الجلوس على رؤوس التـلال والنظر الى مدينتنا . »

وانى بالحقيقة قد تسلقت التلال ومشيت فى اراضٍ بعيدة جداً .

لانهُ كيف امكنني ان أراكم من غير ان اكون فى علو شاهق ، أو بعد شاسع ؟

او كيف يستطيع احدٌ ان يكون قريباً ما لم يكن بعيداً ؟

***

وغيركم من كان ينادينى ، ولكن بغير الالفاظ ، ويقول لى « ايها الغريب ، ايها الغريب ، المتعشق ما لا يُبلغُ اليهِ من الشاهقات ، لماذا تقطن بين قنن الجبال حيثما تبنى النسور اعشاشها ؟

لماذا تسعى الى ما لا سبيل للحصول عليهِ ؟

اىُّ نوع من العواصف تريد أن تصطاد لشبكتك ،

وما هي الطيور البخارية التي تفتش عنها في السماء ؟

هلمَّ الينا ، وكن واحداً منا .

اهبط من علوّك ، وسكّن حدة مجاعتك بخبزنا ،

وأخمد لظى عطشك بلذيذ خمرتنا ؟ »

قالوا هذه الاقوال كلها في وحدة نفوسهم ؛

ولو كانت وحدتهم أعمق مما هي لادركوا انني لم اكن

أسعى الا الى ادراك سرّ افراحكم وآلامكم ،

ولم اكن اصطاد سوى ذواتكم الكبرى السائرة نحو

السماء .

* * *

ولكن الصياد قد صار صيداً :

لان كثيراً من سهامي لم تترك قوسي الا لكي تسعى

الى صدري .

والطائر قد صار زحافة :

لانى عند مابسطت جناحيَّ فى الشمس صار ظلهما على الارض سلحفاة .

وانا المؤمن صرت مرتاباً ،

لانى كثيراً ما وضعت اصبعي فى جنبي رجاءَ أن ابلغ الى كمال ايمانى بكم ومعرفتى لحقيقتكم .

* * *

وبهذا الايمان وهذه المعرفة اقول لكم ،

انكم لستم محصورين فى سجون أجسادكم ، كلا ، ولستم مقيدين بجدران بيوتكم وحدود حقولكم .

فان الذات الخفية التى تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح .

لانها لا تدب الى الشمس مستدفئةً ولا تتامس طريقها فى الظلمة مستنجدة ،

بل هى روح حرة طليقة تغلفُ الارض وتركب دقائق الاثير .

* * *

وان جاءت كلماتى هذه غامضة على أفهامكم فلا تسعوا
وراء ايضاحها .

فان الغموض والسديم هما بداءة كل شيء لانهايته ،
واننى بملء الرغبة اود ان تتذكرونى كبداءة .
والحياة . وجميع الكائنات الحية ، انما تتصور اولاً
فى الضباب وليس فى البلور .
ومن يدرى ان البلور لم يكن ضباباً متجمداً ؟

*
* *

وهذا ما اودّ ان تحتفظوا بهِ مع ذكراى :
ان ما يبدو لكم ضعيفاً متضعضعاً فيكم هو اقوى
وأثبت ما فى كيانكم .
لانهُ أليس لُهاثكم هو الذى يقيم بنيان عظامكم
ويشددهُ ؟

بل اليس الحلم الذى لم يحلم بهِ احدٌ منكم قط هو الذى بنى مدينتكم وعمل كل ما فيها ؟

فلو كان لكم ان تنظروا مجارى ذلك الاهاث لما كانت لكم حاجة الى ان تنظروا شيئاً آخر غيرها ،

ولو استطعتم ان تسمعوا مناجاة ذلك الحلم لما كنتم ترغبون فى سماع اى صوت آخر فى العالم .

*
* *

ولكنكم لا تنظرون ولا تسمعون ، وحسناً تفعلون .

فان الحجاب المسدول على عيونكم سترفعهُ اليد التى حاكتهُ ،

والطين الذى يسدُّ آذانكم ستنتزعهُ الأصابع التى جبلتهُ .

وحينئذ تبصرون .

وحينئذ تسمعون .

يدَ انكم لن تتحسروا على انكم كنتم عمياً او صُمّاً ،
لانكم فى ذلك اليوم ستعرفون المقاصد الخفية فى
كل شىء ،
وستباركون الظلمة كما تباركون النور .

*
* *

وعند ما قال هذا نظر حواليهِ ، فرأى رُبّان سفينتهِ
منتصباً أمام السكّان وهو ينظر تارة الى الاشرعة وطوراً
الى البحر .
فقال :
ان ربان سفينتى واسع الصدر جزيل الصبر .
فان الريح تهب بعنف ، والاشرعة مضطربة ؛
حتى ان السكّان نفسهُ يحتاج الى من يديرهُ ؛
ومع كل هذا فان ربان سفينتى ينتظر سكوتى .
وهؤلاء الملاّحون رفقائى ، الذين سمعوا جوق المنشدين

فى البحر الاعظم ، قد اصغوا الىَّ بطول أَناة .

ولكنهم لن ينتظروا ثانية واحدة بعد .

فانى على أتم الاهبة للسفر .

فقد وصل الجدول الى البحر ، وأُتيح للام المظيمة ان تضمَّ ابنها الى صدرها مرةً ثانية .

***

فالوداع ، الوداع ، يا ابناءَ أورفليس .

قد غربت شمس هذا اليوم .

واغلق علينا ابوابهُ كما تغلق زنبقة الغور اوراقها على غَدِها .

فكل ما أُعطيناهُ ههنا سنحتفظ بهِ ،

واذا لم يكن كافياً لسد حاجاتنا ، فاننا نأْتى ثانية الى هذا المكان ونمد أيدينا معاً لمن أعطانا .

ولا تنسوا انى سآتى اليكم مرةً اخرى .



صفحة ١١٦

فلَنْ يمرَّ زمن قليل حتى يشرع حنيني فى جمع الطين والزبد لجسد آخر .

قليلاً ولا ترونني ، وقليلاً وترونني ،

لان امرأة اخرى ستلدني .

*
* *

اودعكم واودع الشباب الذى قضيت بينكم .

فاننا فى الامس قد اجتمعنا كما فى حلم .

قد أنشدتم لى فى وحدتى ، وبنيت لكم من اشواقكم برجاً فى السماء .

ولكن عهد النوم قد انقضى . والحلم قد مضى ، ولسنا الآن عند بزوغ الفجر .

لان الظهيرة ترقص فوق رؤوسنا ويقظتنا الناقصة قد تحولت الى نهار كامل ، فيجدر بنا ان نفترق .

فاذا جمعنا شفق الذكرى مرة اخرى فاننا حينئذ نتكلم

معاً ، وحينئذ تنشدون لى انشودة اوقع فى النفس من انشودة اليوم .

وان اجتمعت ايدينا فى حلم ثانٍ فهنالك سنبنى برجاً آخر فى السماء .

***

وعند ماقال هذا أشار الى الملاّحين اشارة تؤذن بالسفر ، فرفعوا مرساة السفينة فى الحال وحلوا حبالها ، وساروا نحو الشرق .

فصرخ الشعب كلهُ بصوت عظيم كما من قلب واحد ، وتعالى صراخهم فى الشفق فحملتهُ دقائق الهواء فوق البحر كانهُ صوت بوق عظيم .

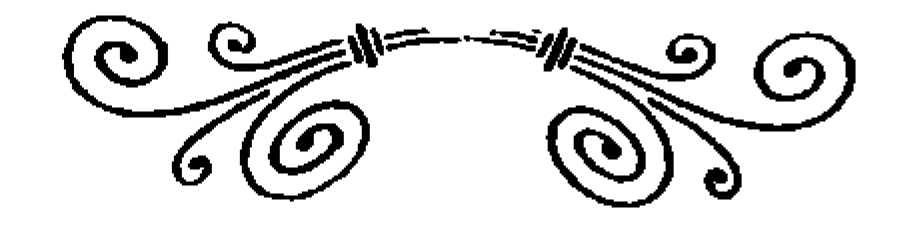
اما ألمطرة العرافة فكانت صامتة وحدها ، تشيع السفينة بنظرها حتى توارت فى الضباب .

ثم تفرق الشعب كلٌ فى سبيلهِ ، بيد انها ظلت وحدها

واقفـة على شاطىء البحر تردد فى قلبهـا كلمات المصطفى الاخيرة :

« قليلاً ولا ترونى ، وقليلاً وترونى ،

لان امرأة اخرى ستلدنى . »



فهرس الكتاب

ملحق

بكتاب النبي

ترجمة

الارشمندريت انطونيوس بشير

نترجم فيما يلي الخطاب الذى القاهُ الاستاذ فرانكل رئيس الطائفة اليهودية فى مدينة ديترويت ميتسشيغان من اعمال الولايات المتحدة الاميركية على نخبة من علماء المدينة وكبار مفكّريها يصف لهم كتاب « النبي » ومؤلفهُ جبران خليل جبران بدرس تحليلي يتضح لكل من يطالعهُ الدرجة التى بلغ اليها نابغة الوطن المحبوب فى المهجر لدى ابناء أَميركا .

وكان فى ودنا ان نضعهُ فى مقدمة الكتاب ، غير اننا عدلنا عن ذلك لكى لا نقيّد المطالع بافكار الخطيب ، فرأينا ان نجعلهُ ملحقاً بالكتاب يطالعهُ القارىء الاديب بعد ان يفرغ من مطالعة « النبي » المرة الاولى فينُم النظر فى ما يقدمهُ لهُ من الملاحظات الجديرة بالاعجاب والتأمل ثم يَعُود الى قراءة الكتاب مثنى وثلاث ورباع فتكون له هذه الملاحظات مع اختبارهِ الشخصى فى درس هذا السفر النفيس خير معوان

على التقاط درره الفريدة . وانا مع الخطيب بكل ملاحظاته
ما عدا رغبته في ضم جبران الى اليهودية ! !

وهذه خطبة الاستاذ فرانكل :

كما ان المجتاز في الصحراء المحرقة وقد قرصته الشمس بحرارتها القاسية وخارت قواه حتى الموت تجاه الرياح الشرقية الهابة في وجهه فبات واهي العزم قليل الامل في الحياة — كما ان هذا الهائم المسكين وقد نفدت جعبة صبره يقبل على واحة مخضلة الجوانب فيشعر برقة النسيم العليل ينعش قلبه ويحيي ميت آماله ، هكذا ونحن في وسط مزاحمات هذا العالم الغربي المزدحم الملتصق بمحبة المادة وقد اثقلت المصالح العمياء المتضاربة كواهلنا تتنفس الحياة والرجاء السعيد عند ماتهب علينا نسمة من نسمات الشرق الروحي الخالد .

اجل ، ان الغرب قد بنى صروحه وابنيته الشاهقة المتينة من الفولاذ والحجارة : وقيد جداوله الشاردة في مجاهل

الارض واستخدمها لتدير مصانعهُ ومعاملهُ وتجهزهُ بالقوة اللازمة لما استنبطهُ من الآلات والاختراعات ،وتوفر، لاجل رفاهية الناس وراحتهم ومسراتهم ومنافعهم ، جميع الحاجات المادية التي هي كلّ يوم في ازدياد وعليها ترتكز مدنيتنا الحديثة .

اما الشرق فلم يشيد مثل هذه الصروح . بل كان كسولاً بطيئاً في اقتبال ثمرات عبقريتنا ونبوغنا . ولكنهُ ما برح يحلم أحلامَهُ البعيدة ويرى رؤى وحيهِ السماوية السعيدة . فالغرب وضع قوات الطبيعة تحت قدميهِ وامرها ان تنوب عنهُ في التعمير والبناء . واما الشرق فقد اكتفى بالتأمل في جمال عيني الطبيعة والتلذذ برؤية مجدها غير المتغير . ففي الغرب كان يتصاعد صفير الالوف والملايين من الآلات التي لا تنقطع عن عملها . وفي الشرق كانت تتصاعد ترانيم الشعراء وتأملات الفلاسفة . الغرب قدم لنا عالماً مترجرجاً مشغولاً مجدّداً . والشرق أنعم علينا بعطايا النبوة والشعر

والفلسفة . ومن الشرق بزغت انوار الرصانة ، والهدو ، والوقار ، والسكينة ، والوحدة ، والعظمة الروحية التى اثمرت للعالم اشهى الثمرات العقلية والنفسية .

ولاجل ذلك ظل الغرب غرباً والشرق شرقاً فلا يستطيع الواحد ان يفهم لغة الآخر ؛ بل ان فِكْرَ الواحد ، بما لهُ من المميزات الخاصة ، يبدو غريباً بعيداً عن فكر الثانى ولا صلة بينهما . وقد شعرت بهذه الحقيقة ووثقت بها الثقة كلها عند ماقدمت لكم نتيجة درسى لمؤلفات رابيندرانوث طاغور وفلسفتهِ . وانى لأزداد شعوراً وثقة بهذه الحقيقة اليوم اذ آتى لكى ادرس معكم درساً خاصاً للكتاب الاخير الذى وضعهُ جبران خليل جبران ، الشاعر والرسام الفنان والفيلسوف والصوفى النابغة ، الذى وَجدتْ فيهِ عاطفة الشرق الملتهبة ونفسهُ العميقة فماً ينطق بالحكمة وصوتاً يرتفع مستنزلاً الكثير من وحى الشرق الروحى الى الغرب المادى .

وقد وعى هذا العبقرى فى شخصيتهِ الفريدة عزيمة بالغة

وقوة نادرة وأَعجب ما فيهما انهما رفيقتا اللطفِ والوداعة والرقة المتناهية . وقد احسن من قال فيهِ ، ان مركز رودين فى النحت هو كمركز جبران فى الآداب والفنون . وتتضح الدقة فى هذه المشابهة لمن حظى منكم بزيارة معرض رودين فى باريس حيث يحفظ الكثير من التماثيل الحجرية التى عملها هذا الاستاذ النحات العظيم . وربما كان ذلك أوضح لمن زار اللوكسمبرج ونظر اعمال رودين هناك . ففى كل عضو من كل تمثال من صنع هـذا الفنان الكبير ترتسم علائم القوة البالغة والعزم بطريقة ظاهرة لاتخفى على ابسط المتأملين . واكثركم يتذكر هذا فى عملهِ المشهور ، « المفكر » . ومع ذلك فان وراء القوة الجبارة التى هى جزء من عمل رودين ، نرى اللطف والرقة — بل التناهى فى الدقة .

ومثل هذه الصفات والميزات البارزة ترتسم امام كل من يقرأ جبران . فان مؤلفاتهِ ورسومهُ تنقض عليك انقضاض العاصفة ولكنها لاتمسك بسوء ، بل تشفيك وتقويك . فلا

أَثر للتردد فيهـا عند ما تحارب ضعفاتك وتقوم اعوجاج حياتك . ولـكنها فى الوقت نفسهِ لطيفة لاتثير غضبك .

والحقيقة التى لا مرية فيهـا ، ان ما يراهُ البعض تناقضاً مطرداً فى الروح ، يرافق اعمال هذا الرجل الشرقى من أَلفها الى يائهـا . فجبران رجل يكتب الفلسفة بقالب شعرى فتان ، ولـكن بثقة الفيلسوف البالغ الحـكمة الذى يقدم لك افـكاراً ممتلئة بروح الشعر والغناء قلما يقربها سواهُ الا عن طريق الشعر واوزانهِ . وهو كجميع عظماء الشرق ، كثير الاحلام بعيدها ، بيد ان احلامَهُ كلها فلسفة عملية . فهو يدعوالناس الى التأمل فى نجوم السماء ، ولـكنهُ لا يجعلهم يتناسون انهم ابناء الارض . ويؤمن بانالخير خالد غيرمحدود ولا مرتبط بزمان او مكان ، ولـكنهُ لا يمكن ان يتمتع بهِ الا الذين يجاهدونويتعبون فى الحصولعليهِ . وهو يسلم بحقيقة الأَلم ولـكنهُ يهتف بالناس قائلاً :

« ان كأْس الالم وان احرقت شفاهكم ، فهى مصنوعة

من الطين الذي جبلته يدا الفخاري الازلي بدموعه المقدسة . »

ويعرف أن اليوم يخص كل انسان وان الازلية مثل اليوم ، لانه كما يقول :

« ليس الامس سوى ذكرى اليوم وليس الغد سوى حلم اليوم . »

فهو صوفي كما ترلينك . ولكن صوفيته لا تمنعه من ان يرى بملء الوضوح الاشياء التي لها وجود حقيقي حوله . وكثيراً ما يشعر القارىء بميل الى ان يتصوره ناسكاً زاهداً . ولكنه يعرف ان الطيبات والملذات يمكن ان تكون صالحة ، وان مجرد كونها طيبات لذيذات يحول دون كونها شريرة بطبيعتها ، وفي ذلك قوله :

« ولعلك تسأل في قلبك قائلاً ، « كيف نستطيع ان نميز بين الصالح والشرير من الملذات ؟

فاذهب الى الحقول والبساتين ، وهنالك تتعلم ان لذة

النحلة قائمة فى امتصاص العسل من الزهرة ،

ولكن لذة الزهرة ايضاً تقوم بتقديم عسلها للنحلة .

والنحلة تعتقد أن الزهرة ينبوع الحياة ،

والزهرة تؤمن بان النحلة هى رسول المحبة ،

والنحلة والزهرة كلتاهما تعتقدان أن اقتبال اللذة وتقديمها

حاجتان لابدّ منهما وافتنان لاغنى للحياة عنهُ . »

فهو لايحتقر ، كالناسك المتقشف ، رفاهيــة العيش وطيبات الارض . ولكنهُ يعرف جيداً كيف يميز بين الطيبات التى تزيد فى كمال الحياة وعزمها ، وتلك التى تضلّها وتعمل على فقرها وذلها . وفى ذلك يقول :

« ربكم اخبرونى ، يا ابناء أورفليس ، ماذا تملكون فى بيوتكم ؟ واى شىء تحتفظون بهِ داخل هــذه الابواب الموصدة ؟

هل عندكم السلام ، وهو القوة الصامتة التى تظهر عزيمة ذواتكم فى اعماقكم ؟

هل عندكم التذكارات ، وهى القناطر اللامعة التى تصل قُنَن الفكر الانسانى بعضها ببعض ؟

هل عندكم الجمال ، الذى يرتفع بالقلب من مصنوعات الخشب والحجارة الى الجبل المقدس ؟

بربكم اخبرونى ، هل عندكم كل هذا فى بيوتكم ؟ ام عندكم الرفاهية فقط والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع ، الرفاهية التى تدخل البيت ضيفاً ، ثم لا تلبث ان تصير مضيفاً ، فسيداً عاتياً عنيفاً ؟

ثم تتحول الى رائض جبار يتقلد السوط بيمينهِ والكُلّاب بيسارهِ متخذاً رغباتكم الفضلى العوبة يتلهّى بها .

ومع ان بنان هذه الرفاهية حريرىُّ الملمس فان قلبها حديدىُّ صلد .

فهى تهدىء من حدتكم لتناموا ، ثم تقف امام اسرّتكم هازئةً بكم وبجلال أجسادكم .

تضحك من حواسكم المدركة وتطرح بها بين الاشواك

كأنَّها أَوعية سهلة الانكسار .

لان التحرق للرفاهية ينحر أَهواء النفس فى كبدها فيرديها قتيلة ، ثم يسير فى جنازتها فاغراً شدقيهِ مُرغياً مُزبداً . »

ويلوح لى انكم من هذا القليل الذى قدمتهُ لكم ، تستطيعون ان تتحققوا انهُ مع ان هذا الانسان يتكلم بلغة لا نقدر نحن ابناء الغرب الغارقين فى اوحال المشقات والمصالح المادية ، ان نفهمها وندرك الغاية الروحية البعيدة التى يرمى اليها ، فهو يتكلم عن افكار تخطر لكم ولى وعن حاجات هى حاجاتكم وحاجاتى — افكار وحاجات تبلغ بالحقيقة الى صميم قلب فكرتنا وتنفذ الى اعماق نفوسنا ، وهى وان كانت فى الغالب تتكىء غافلةً فى كياننا ، فهى ترغم على الظهور فى حياتنا فنعترف بها للحال عند ما يصورها لنا امثال جبران بمثل هذا الوضوح .

ولذلك اقول ان هذا الرجل ليس حالماً ورائياً فحسبُ .

بل هو فيلسوف بالغ الحكمة فى ايضاح ما خفى من اسرار الحياة ومكنوناتها . واذا حللت افكارهُ وفلسفتهُ ، اتضح لك ان الفلسفة النابغة من كل جزء من اجزائها لا تنحصر بالفرد ، بل هى فلسفة اجتماعية اذا ادركت الجماعات والشعوب فحواها وعملت بها كانت خير وسيلة لسعادتهم وطمأنينتهم فى هذه الارض .

وأود هنا أن أقول كلمة واحدة فى مؤلف الكتاب الذى نجتمع اليوم لدرسهِ وتحليل فلسفتهِ . وانى لا أقدر أن أقول كثيراً فى الرجل لأنى لم يتيسر لى أن أجمع معلومات كثيرة عنهُ . بيد أننا نعرفهُ كمؤلف لغير واحد من الكتب النفيسة باللغة الانكليزية ، أهمها « المجنون » وقد طبع سنة ١٩١٨ و « الرسوم العشرون » طبع سنة ١٩١٩ (— والمؤلف رسام رمزى فنان وجميع الرسوم التى تظهر فى مؤلفاتهِ انما تبرزها ريشتهُ الساحرة —) والمطبوع سنة ١٩٢٠ .

وُلدَ في سورية ، وقد دُعي بحق أَعظم شعراء الشرق الأدنى . وفي مقدمة الميزات التي يتفرد بها جبران متفوقاً على جميع الكتبة والشعراء والفلاسفة الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب ، انهُ لايزال شديد التعلق بروح بلادهِ وتأملاتها البعيدة ، وهو في الوقت نفسهِ غير متصامٍّ عن الاصغاء إلى صوت مدنيـة العالم الجديد الضاجّة الصاخبة وجميع اختراعاتها واستنباطاتها .

وكل من يطالع « النبي » بفهم روحي وبصيرة عقلية ، لايستطيع أن يغمض الطرف عن هذه الحقيقة . فالنبي مع أنهُ طبع المرة الأولى منذ أقل من خمسة عشر شهراً [في ايلول سنة ١٩٢٣ (١)] فقـد أُعيد طبعهُ ثلاث مرات في هذه

(١) القى المعلم فرانكل هذه الخطبة صباح الاحد في ٢٨ ك ا (ديسمبر) سـنة ١٩٢٤ . ويسرنا ان ننقـل للقراء الادباء هذه الفقرة من رسالة وردت علينا في أواخر شباط سنة ١٩٢٦ من الصديق جبران تظهر اقبال رجال الادب على الكتاب في جميع أنحاء العالم . قال جبران : « كل ما استطيع ان اقوله لك الآن في الكتاب الصغير ، الذي هو جزء من حشاشتي ، انه قد بلغ الطبعة العاشرة (بالانكليزية) وانه قد ترجم الى عشر لغات

المدة القصيرة مما يدل على شدة اقبال جمهور المتأدبين من الاميركيين والانكليز على مطالعتهِ . وهذا الاقبال العظيم على كتاب وضع للخاصة من الأُدباء وقلما ينطبق على رغبات الجمهور السطحية التي لا تتعدى الروايات والقصص الغرامية المملوءة بالأُخطار والمحشوة بالأُكاذيب، يدل دلالة واضحة على جمال الاسلوب الذي لجأَ إليهِ المؤلف فى تأدية حقائقهِ الخالدة للناس . « فالنبي » لا يعرف من القصة إلا ظاهرها . لانهُ بالحقيقة سلسلة مقالات تبحث بحثاً فلسفياً سامياً في الحياة البشرية وحاجاتها ورغباتها من المهد إلى اللحد . والحق يقال

اوربية والى اليابانية والهندستانية من اللغات الشرقية ... و «الحبل على الجرار» ... وأما رأى القوم في الكتيب من وودرو ولسون الى أكبر شاعر انكليزى ، الى أشهر كاتب فرنسي الى غاندى الهندى الى العامل البسيط الى الزوجة والام فما لم انتظره أو اتخيله قط . ولذلك أجد نفسى مخجولا في بعض الاحايين أمام عطف الناس وكرمهم . »

وانّنا لا نشك في أن قراء العربية سيستقبلون « النبي » العربى الذى هو ثمرة نبوغ ابن بلادهم بما لا يقل عن الاجانب فلا تنطبق عليهم الآية ، « ليس نبي بلا كرامة الا في وطنه وبين أهله . » المترجم

انهُ قلما يوجد موضوع من المواضيع الهامة فى الحياة التى
هى شغل الناس الشاغل فى دوائرهم العلمية العليا لم يطرقهُ
المؤلف — فكان فى بعض هذه المواضيع موجزاً وفى بعضها
مسهباً — فى هذا الكتاب الصغير بعدد صفحاتهِ الكبير
ببالغ حكمتهِ وخالد آياتهِ ، ولذلك لا يخطر لك ان قلة صفحات
هذا الكتاب تحملك على الظن أن فى أستطاعتك أن تقرأهُ
فى وقت قليل . فهو من الكتب الفريدة فى العالم « كالكوميدية
الالهية » لدانتى ، و« الفردوس الضائع » لملتون ، و« سفرى
أيوب » و « أشعياء » وأكثر كتب التوراة ، الكتب
التى يجب أن تقرأ أولاً وثانياً وثالثاً وعاشراً وفى كل يوم
وكل ساعة ، إذا كان القارئ يود إدراك جواهرها والحصول
على دررها . وتتضح لكم عظمة الكتاب من سرد بعض
المواضيع التى يطرقها المؤلف فيهِ ، مثل الحب والزواج ،
الأولاد ، الأخذ والعطاء ، العمل واللعب ، الفرح والترح ،

الأكل والشرب، البيع والشراء ، البيوت والثياب ، الجرائم والعقوبات ، الشرائع والحرية ، الخير والشر ، الألم ، اللذة ، الصداقة ، الجمال ، الدين، الموت . الخلود . وليست هذه جميع المواضيع التي بحث عنها المؤلف في كتابهِ .

وإن شئنا أن نسمي الطريقة التي لجأ إليها المؤلف في كتابهِ قصة فهي تبدأ بذكر نبي مختار حبيب دعاهُ المصطفى وقد انتظر اثنتي عشرة سنة في مدينة أورفليس مترقباً عودة سفينتهِ الى المدينة لكي يركبها عائداً الى الجزيرة التي وُلد فيها . وفي اثناء الاثنتي عشرة سنة التي قضاها في الترقب والانتظار ، كان يعلّم ابناء اورفليس ويهذبهم حتى علقتهُ قلوبهم وعشقتهُ ارواحهم وصار لديهم موضوع اعجاب واحترام مما لم يستطع معلم آخر ان يفعلهُ بينهم . فقد أعطاهم من كل ما كان لهُ من الحكمة والمعرفة ولكنهُ لم يقبل الا القليل من عطاياهم . فلم يكن يجلس إلى موائدهم ولم يرض قط أن يدخل مساكنهم التي طالما فتحوها لهُ من صميم قلوبهم ، فكان

يفضل أن يجوب الغابات ويتنقل فى الأحراج مفترشاً الغبراء وملتحفاً السماء .

وأخيراً وصلت سفينتهُ ودنت الساعة ليفارق الشعب الذى نشأ على حبهِ واحترامهِ . ولكن الكآبة استولت على قلبهِ لدى مجرد افتكارهِ بفراق أبناء روحهِ ولذلك نراهُ يقول :

« قد كانت أيام كآبتى طويلة ضمن جدران هذه المدينة ، وأطول منها كانت ليالى وحدتى وانفرادى ، ومن ذا يستطيع أن ينفصل عن كآبتهِ ووحدتهِ من غير أن يتألم فى قلبهِ ؟

كثيرة هى أجزاء روحى التى فرقتها فى هذه الشوارع ، وكثير هم أبناء حنينى الذى يمشون عراةً بين التلال ، فكيف أفارقهم من غير أن أُثقل كاهلى وأضغط روحى !

فليس ما أُفارقهُ بالثوب الذى أنزعهُ عنى اليوم ثم ارتدى بهِ غداً ، بل هو بَشَرَةٌ أمزقها بيدى .

كلا ، وليس فكراً أُخلفهُ ورائى ، بل قلباً جمّلتهُ

مجاعى وجعله عطشى رقيقاً خفوقاً .

وفيما هو ذاهب إلى سفينته لقيه الشعب بأسره ، صغاراً وكباراً ، وطفقوا يضرعون إليه أن يمكث بينهم برهة وجيزة . وقال له أحدهم :

« لا تجعل عيوننا تتشوق لرؤية وجهك »

وقال له آخر :

« قد تعشقتك قلوبنا وعلقتك أرواحنا ، ولكن محبتنا تقنعت بقنع الصمت فلم نستطع أن نعبر عنها .

بيد أنها تصرخ إليك . الآن بأعلى صوتها ، وتمزق قنعها بيديها لكى تظهر لك حقيقتها .

فان المحبة منذ البدء لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق »

ثم جاء إليه كثيرون متوسلين متضرعين ، وكانت بينهم امرأة خرجت من المقدس اسمها المطرة ، وكانت عرافة فنظرت إليه نظرة ملؤها العطف والمحبة لأنها كانت أول من سعى إليه وآمن به عند مالم يكن له إلا ليلة وضحاها في مدينتهم . ثم قالت له :

« إننا واحدة نسألك قبل أن تفارقنا :

أن تخطب فينا وتعطينا من الحق الذى عندك . ونحن نعطيهِ لأولادنا وأولادنا لأولادهم وأحفادهم ، وهكذا يثبت كلامك فيناعلى ممرّ العصور .

فى وحدتك كنت ترقب أيامنا ، وفى يقظتك كنت تصغى إلى بكائنا وضحكنا فى غفلتنا .

لذلك نضرع إليك أن تكشف مكنوناتنا لذواتنا ، وتُخبرنا بكل ما أظهر لك من أسرار الحياة ، « من المهد إلى اللحد » .

فأجاب سؤلها ولم يخيب طلبتها ، وشرع يخاطب كلاً فى دوره بحسب السؤال الذى يطرحهُ عليهِ . والملاحظ البصير يدرك من مطالعة هذه الأسئلة أن كل انسان كان يسألهُ ماهو فى حاجةاليهِ رجلاً كان أو امرأة . فالمرأة تسألهُ عن الأولاد ، والغنى يسألهُ عن العطاء ، والفلاح عن العمل . والشاب عن الصداقة ، والشاعر عن الجمال ، والكاهن عن

الدين ، والعرفة عن الحب والزواج وأخيراً عن الموت والابدية .

واننى قاصرٌ عن ان أصف لكم فى هذه الخطبة الحاضرة آراء المؤلف فى جميع المواضيع التى يعالجها فى كتابهِ . لاننى لا ابالغ البتة اذا قلت ان كل خطبة من خطبهِ كافية لان تكون اساساً متيناً لاية عظة من العظات الكبرى . وكل ما اود ان ابلغ اليهِ فى هذا الخطاب الحاضر أن اشير الى اتساع فكر المؤلف وسموّ حكمتهِ وهكذا استطيع ان اقودكم الى حيث تستطيعون ان تتبعوهُ فى طرقهِ ومسالكهِ الصعبة الضيقة (وما اصعب الطريق التى تؤدى الى الحياة) بسهولة تامة ربما لا تكون لكم بغير هذه الواسطة .

فقد سبقت فاوضحت لكم ان لجبران فلسفة اجتماعية لايضيع الفردُ فيها فى جسم الجماعة ، ولايستطيع فى الوقت نفسه ان يدرك فى كمال وحدتهِ معنى الحياة الكامل ويبلغ الى عزة اقتدارها . او بعبارة اخرى ، ان كل انسان يجب ان

يقف وحـدهُ فى الحياة ، فيفكر بمقياس فكرهِ الخاص ، ويُعنى بحلّ مشاكلهِ الخاصة ، ويحيا حياتهُ على وفق رغبات قلبهِ . وفى ذلك يقول المؤلف :

« لأن الوحى الذى يهبط على رجل ، لايعير جناحيهِ لغيرهِ .

وكما ان لـكل منكم مقاماً منفرداً فى معرفةالله اياهُ ، هـكذا يجب عليهِ ان يكون منفرداً فى معرفتهِ لله وفى ادراكهِ لاسرار الارض . »

ومن الجهة الاخرى يجب على الانسان ان يضع نصب عينيهِ انه مقيدٌ فى هذا العالم بمئات الروابط التى تربطهُ باخوتهِ فى الانسانية ، وانهُ لم يبلغ الى الدرجة التى هو فيها الا بما كان لحياتهم من التأثير فى حياتهِ . وان حياتهـم ايضاً تتكيف وتتطور بالتأثير الخفى الذى لحياته فيهم وان كان يغفل عن هذا التأثير فى غالب الاحيان . او كما قالت القدماء ، « مامن رجل يعيش وحدهُ فى العالم او يحيا لذاتهِ دون سواهُ . » فالفرد

يشارك الكل فى قسمتهم والكل يشاركون الفرد فى قسمتهِ .

وقد اوضح لنا جبران هذه الفكرة بقطعة فتانة من كتابهِ وضمنها اولاً اخلاق الناس وطباعهم، وثانياً الشفقة البالغة على الذين يخيل الينا انهم سقطوا عن درجة الرجل العادى من الناس . ثم يضيف الى ذلك كلهِ توبيخاً لطيفاً مؤثراً للرجل الذى ينتفخ بروح العجب والكبرياء على رفقائهِ لانهُ استطاع ان يبلغ الى درجة من الرقى والآداب لم يقدر رفقاؤهُ ان يصلوا اليها . وهذا ما يقولهُ المؤلف فى الموضوع :

« قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف اثماً كانهُ ليس منكم ، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم .

ولكننى الحق اقول لكم ، كما ان القديس والبار لايستطيعان ان يتساميا فوق الذات الرفيعة التى فى كل منكم »

هكذا الشرير والضعيف لايستطيعان ان ينحدرا الى أدنى من الذات الدنيئة التى فى كل واحد منكم .

وكما ان ورقة الشجر الصغيرة لاتستطيع ان تحول لونها

من الخضرة الى الصُفرة الا بارادة الشجرة ومعرفتها الصامتة في اعماقها ،

هكذا لايستطيع فاعل السوء بينكم ان يقترف اثماً بدون ارادتكم الخفية ومعرفتكم التى فى قلوبكم .

فانكم تسيرون معاً فى موكب واحد الى ذاتكم الالهية .

أَنتم الطريق وانتم المُطرقون .

فاذا عثر احدٌ منكم فانما تكون عثرتهُ عبرةً للقادمين وراءهُ فينتبهون للحجر الذى عثر بهِ .

اجل ، وتكون عثرتهُ توبيخاً للذين يسيرون أَمامهُ باقدام سريعة ثابتة لانهم لم ينقلوا حجر العثار من طريقهِ . »

ثم يقول :

« لذلك لاتستطيعون ان تضعوا حداً يفصل بين الاشرار والصالحين والابرياء والمذنبين :

لانهم يقفون معاً أمام وجه الشمس ، كما ان الخيط الابيض والخيط الأسود ينسجان معاً فى نول واحد .

فاذا انقطع الخيط الاسود ، ينظر الحائك الى النسيج بأسرهِ ، ثم يرجع الى نولهِ يفحصهُ وينظفهُ . »

وفى موضع آخر يقول :

« وان رغب احدٌ منكم فى أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة فلينظر أولاً فى اعماق جذورها : وهو ولاشك واجدٌ أن جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة ، المثمرة وغير المثمرة ، كلها مشتبكة معاً فى قلب الارض الصامت . »

وانني اشعر ان مثل هذه الكلمة الخالدة يجب ان تقع على الذين يدينون غيرهم من الناس ، كأنها رسول الرحمة والمحبة ، يذكرهم انهُ ليس بالعسير الشاق عليهم ان يتصوروا مركزهم ومركز قريبهم الذى يريدون ان يحكموا عليهِ ثم يضعوا ذواتهم فى موضعهِ ، وحينئذ يقلعون عن دينونتهِ .

والحقيقة التى لا مرية فيها ان جبران هو من بداءة هذا

الكتاب الى نهايتهِ نبي محبة وسلام . فهو يدعو كل انسان الى القيام بعملهِ بروح المحبة . ولذلك نراهُ يعرّف العمل بقولهِ ، « ان العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة . » ثم يقول :

« وقد ورثتم عن جدودكم القول بان الحياة ظلمة ،فرُحتم في عهد مشقتكم ترددون ما قالهُ قبلكم جدودكم المزعجون .

بيد انني الحق اقول لكم ، ان الحياة ظلمة حقيقية اذا لم ترافقها الحركة ،

والحركة تكون عمياء لا بركة فيها ان لم ترافقها المعرفة ،

والمعرفة تكون عقيمة سقيمة ان لم يرافقها العمل ،

والعمل يكون فارغاً وبلا ثمر ان لم يقترن بالمحبة .

لانكم اذا اشتغلتم بمحبة فانما تربطون ذواتكم وأفرادكم بعضها ببعض ، وترتبطون كل واحد منكم بربهِ .

وما هو العمل المقرون بالمحبة ؟

هو ان تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك ، مفكراً ان حبيبك سيرتدي ذلك الرداء .

هو أن تبنى البيت بحجارة مقطوعة من مقلع حنانك واخلاصك ، مفكراً ان حبيبك سيقطن فى ذلك البيت .

هو أن تبذر البذور بدقة وعناية وتجمع الحصاد بفرح ولذة كانك تجمعهُ لكى يقدم على مائدة حبيبك .

فالعمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة . »

ويجدر بنا ألاّ نغفل عن الحقيقة التى يوضحها لنا جبران بان عمل اليدين مع قداستهِ ليس بالعمل الوحيد الذى تلازمهُ البركة . فهنالك عمل آخر غير مصنوع باليدين يصفهُ لنا قائلاً :

« وان جاءكم المغنون والراقصون والعازفون ، —

فاشتروا من عطاياهم ولا ترفضوهم :

لانهم يجمعون الاثمار والعطور نظيركم ، ومع ان ما يقدمونهُ لكم مصنوع من مادة الاحلام فانهُ أجمل كساء وافضل غذاء لنفوسكم . »

وهكذا ، ايها الاخوة ، اذا قرأنا هذا الكتاب من الصفحة الاولى الى الاخيرة نرى فى كل صفحة بل فى كل

سطر من سطورهِ فيضاً روحياً خالداً يتدفق من معين نفس عظيمة غنية بعطايا الحكمة والمعرفة . حتى انهُ عند ما يتكلم عن الاشياء التى نسميها بعرفنا مادية ، كالبيع والشراء ، والاكل والشرب ، نرى فى كلماتهِ عاطفة روحية وقوة ادبية تأخذان بمجامع القلوب حتى ليجد القارىء نفسهُ مرغماً على الانكباب عليها بكل ذهنهِ مما يندرُ ان نجدهُ فى كتب نوابغ المفكرين . ولذلك لا يدهشنا ان تكون لهُ مثل هذه الجاذبية للقلوب عند ما يعالج المواضيع الروحية التى لا أثر للمادة فيها . فان كلاً منا نحن الاميركيين يتمثل أمامهُ واعظاً من فطاحل وعاظنا ينادى قومهُ المتمرغين فى حمأة المادة والمستسلمين لسلطانها ويحثهم على التحرر منها والالتجاء الى مملكة الروح الخالدة عند ما يسمع جبران يخاطب العرافة المطرة قائلاً :

« انكِ تصلين فى ضيقتكِ وفى حاجتكِ ، ولكن حبذا لو أنكِ تصلين فى كمال فرحكِ ووفرة خيراتكِ .

***

انا لا استطيع ان أُعلمكِ الصلاة بالالفاظ ،
لان الله لا يصغى الى كلماتكِ ما لم يضعها تعالى اسمهُ على
شفتيكِ وينطق بها بلسانكِ . »

ولجبران نظرة حكيمة وعقيدة راسخة فى الدين . فهو يعتقد أَن الدين لا ينحصر فى الزمان والمكان . لانهُ كما قال احد معلمينا القدماء ، « جميع الاشياء مقدسة . » والانسان لا يستطيع ان يميز جيداً بين الدينى والدنيوى . ولذلك يجب ان يلازم الدين حياة الانسان فى جميع طرقهِ ومسالكهِ . وان تظهر ثمارهُ فى كل مظهر من مظاهر فكرهِ وحياتهِ . لان البرهان على وجود الدين وعملهِ فى الوجود انما هو فى حياة الانسان وليس فى اى شيء آخر خارجٍ عنها ، ولذلك فان جبران يعتقد ويعلم بكتابهِ هذا ان الدين يكون حقيقة لا ريب فيها فى حياة الانسان اذا كان الانسان يستقبل الصالح النافع الذى تقدمهُ لهُ الحياة شاكراً فرحاً واثقاً بانهُ عطية الله ، ويستقبل الضّار المحزن ثابت العزم شجاعاً صبوراً لانهُ يعرف

بما فى قلبهِ من عاطفة الدين ان هذا ايضاً هو عطيةمن الله .

وقد اوضح جبران بطريقة فتانة ان الانسان التقى الفاضل الذى يحفظ فى قلبهِ خميرة الدين والفضيلة التى تخمر الحياة باسرها لا يكتفى بان يقبل ماتقدمهُ لهُ الحياة من العطايا الربانية شاكراً بل هو ذلك الذى يفرح بعطايا الحياة ثم يشكر الله الذى جعلهُ أهلاً لأن يعطى المحتاجين ما هم فى حاجة اليهِ من هذه العطايا التى نالها . وهاك ما يقولهُ المؤلف فى هذا الموضوع :

« وكل من يعتقد أن العبادة نافذة يفتحها ثم يغلقها ، فهو لم يبلغ بعد الى هيكل نفسهِ الذى نوافذهُ مفتوحة من الفجر الى الفجر .

ان حياتكم اليومية هى هيكلكم وهى ديانتكم .

نخذوا معكم كل ما لكم عند ما تدخلون هيكلها .

خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور ،

وكل ما لديكم من الآلات التى صنعتموها رغبة فى

قضاء حاجاتكم او سعياً وراءَ مسراتكم وملذاتكم .

لانكم لاتستطيعون ان ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ،

ولا تقدرون ان تنحدروا بتصرفاتكم الى أدنى من خيباتكم .

وليرافقكم جميع معارفكم من ابناء الانسان :

لانكم لاتستطيعون فى عبادتكم ان تحلقوا فوق آمالهم ولا أن تضعُوا ذواتكم الى أحقر من يأسهم .

وان شئتم ان تعرفوا ربكم فلا تُعنوا بحل الأحاجى والألغاز ،

بل تأملوا فيماحولكم تجدوهُ لاعباً مع اولادكم .

وارفعوا انظاركم الى الفضاء الوسيع تبصروهُ يمشى فى السحاب ، ويبسط ذراعيهِ فى البرق ، وينزل الى الارض مع قطرات المطر .

تأملوا جيداً تروا ربكم يبتسم بثغور الازهار ، ثم

ينهض ويحرك يديه بالاشجار . »

وان مَنْ أُسعد بمثل هـذه العقيدة الصحيحة فى الدين، تقوّى ايمانهُ وتنزل عليه الوحى السماوى، يستطيع ان يستقبل الحياة بحزم وثبات ويقتبل الموت بلا خوف ولا وجل . والموت — كما يقول جبران — لا نقدر ان نجدهُ الا فى قلب الحياة .

« لان الحياة والموت واحدٌ كما ان النهر والبحر واحدٌ ايضاً . »

وهكذا نرى هذا العبقرى الحكيم يبعث من اعماق قلبه اصدق الآمال بالخلود والابدية وهو ابداً ثابت الايمان بصلاح الله ورحمته وعدالته . وما اجمل قوله فى الموت :

« وهل موت الانسان هو اكثر من وقوفهُ عارياً فى الريح وذوبانه فى حرارة الشمس ؟

انكم لا تستطيعون ان تترنموا بالاناشـيد حتى تشربوا من نهر الصمت ،

ولا تستطيعون ان تباشروا الصعود الى الجبال حتى تبلغوا الى قنها ،

ولَنْ تقدروا أَن تَرقصوا حتى تسلبكم الارض جميع اعضائكم . »

وانني اصارحكم القول ، ايها الاصدقاء ، معترفاً انني لم يسبق لي قط أن تحركت نفسي من اعماقها كما حصل لي بعد ان قرأت هذا الكتاب المرة بعد المرة . فلماذا أثر في حياتي كل هذا التأثير البالغ ؟ وهل يكون لهُ نفس هذا التأثير في حياة غيري ؟ انني لااستطيع ان اجيب عن غيري ، ولكنني اعرف تمام المعرفة ان ما احدثهُ هذا الكتاب فيحياتي ناجم عن انهُ أوضح بكمال الدقة والفن والجمال ما يخيل الى الناظر اليه انهُ فلسفة جديدة فيالحياة ، ولكنني اعرف انهُ ليس بالجديد البتة ، ففي اقوال جبران اسمع ثانية ترانيم المرنمين القدماء ، وتعاليم الانبياء والحكماء وغيرهم من رجال العهد القديم الذين تكلموا باسم اله اسرائيل العظيم . وانني

اجدُ ثانى مرّةٍ فى نفس جبران ، التى وَجدَتْ سبيلها الى الاتّحاد بنفس الوجود العظمى ، ذلك الافتتان بالروح الالهيـة التى ملأت حياة معلمى اسرائيل وحملتهـم بوحيها العجيب على النطق بكلمات خالدة لم يزدها كرور الايام الا جدةً وقوة .
ومن فم هذا المعلم الجديد جبران أسمع فى هذا القرن العشرين بشارة اليهودى الحكيم القديم : بشارة النور والمحبة : بشارة الانسانية المقدسة : البشارة المعلمة ان الانسان اخٌ للانسان وان الله اب لجميع الناس على السواء .

ولذلك فاننى لا استمد من هذا الكتاب وحياً لفكرى فحسبُ بل اتخذ منهُ آمالاً نيّرات لقلبي كرجل اسرائيلى لاغش فيهِ . لاننى أرى فيهِ دليلاً جديداً على ان الرسالة الروحية العظمى التى نشرتهـا اليهودية القديمة قد اصبحت الرسالة السماوية التى يسلم بها كبار المفكرين والمفكرات فى جميع العصور والامصار ، وان إلسنة الانبياء الفضية فى العالم الجديد تنقل للناس الرجاء النبوى العظيم وتقودهم اكثر

فاكثر الى تحقيق الرؤيا التى رآها اسرائيل القـديم حينما « يكون الله واحداً واسمهُ واحداً . »

ليس جبران يهودياً بطائفتهِ ولـكنهُ يهودى بروحهِ . لان اليهودى ليس الخارج من صُلب يهودى فقط ، بل هو ذلك الممتلئ بروح الايمان بالله الذى يقدس حياة الانسان ويرفعها الى الجبل المقدس الذى ترنم بهِ المرنم بقولهِ :

« مَنْ يصعد الى جبل الرب ؟ او من يقوم فى ديار قدسهِ ؟ الطاهر اليدين والنقى القلب : الذى لم يحمل نفسهُ الى الباطل ولم يحلف بالغش لقريبهِ . هـذا ينال بركة من الرب وبراً من الهِ خلاصهِ . هذا هو جيل طالبيهِ ، ملتمسى وجهك يا اله اسرائيل . »

« انتهى »



المواكب من مؤلفات جبران الرمزية الشعرية . وهو مؤلف من قسمين اوليين : الرسوم والقصائد . اما القصائد او بالحرى القصيدة فهى مؤلفة من مقاطيع تبحث فى مواضيع مختلفة فلسفية يتكلم بها سلباً وأيجاباً شخصان فى موضوع واحد . فالشخص الاول — وهو الشيخ أو الفيلسوف المختمر خبرةً — يقف خطيباً على منبر الحياة ويكرر محاولا تفسير اسرارها واعظاً وعظ الشيوخ المتعمقين حكمة . ولما ينتهى من ابداء رأيه فى الموضوع يردّ عليه صوت فتى فى عنفوان الشباب وقف على منبر الطبيعة فى الغاب يرافق صوتهُ الحان الناى داعياً الناس معهُ الى الغاب حيث لا حكمة ولا فلسفة بل البساطة المطلقة بعينها لا تحجزها حدود ولا تحدها شرائع .

والكتاب مزين باثنى عشر رسماً من ريشة جبران

وثمنه ٥ قروش والبريد ٢ قرشان

﴿ مطبوعات حديثة تطلب من مكتبة العرب بالفجالة بمصر ﴾

ص	
١٠	مذكرات سفير اميركا فى الاستانة تعريب فؤاد صروف
١٥	مذكرات المارشال هندنبرج رئيس جمهورية المانيا الحالى جزآن تعريب منصفان
١٥	مذكرات مدام اسكويت تعريب اسعد خليل داغر
٦٠	الجزء الحادى عشر من دائرة المعارف للبستانى مجلد
٨	روح الاجتماع تعريب المرحوم فتحى باشا زغلول
١٢	لماذا انا مسيحى تعريب الارشمندريت انطونيوس بشير
٨	رسبوتين الراهب المحتال تعريب اسعد خليل داغر
٨	تذكرة الكاتب تأليف اسعد خليل داغر
٥	تاريخ غليوم الثانى تعريب كريم خليل ثابت
١٢	المرشد الظريف فى طالع الجنس اللطيف تعريب حنا اسعد المحامى
٨	القوة الفكرية فى المغنطيسية الحيوية « « «
١٥	تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها الى الآن « « «
٢٥	« « « « « « (ورق جيد)
٥	معارضات قصيدة يا ليل الصب للحصرى القيروانى بقلم عيسى اسكندر المعلوف
١٠	ماك سوينى الصوام الارلندى تاريخه ووصف سجنه
١٢	نوادر الحرب العظمى وهى قصص فكاهية واقعية بالحرب العظمى
٣٠	الساق على الساق فيما هو الفارياق تأليف احمد فارس الشدياق

ص

١٠ رسائل اليازجي للشيخ ابراهيم اليازجي مع ديوانه التاريخي

٢ نفثات مسجون وهو أدبي وطني اجتماعي

٢ العصاميون الذين نبغوا من الفقر تعريب مفيد العياني

٢ الامتيازات الاجنبية وحقوق الاقليات في تركيا وهي المذكرة المقدمة لمؤتمر لوزان تعريب اسكندر عمون

٥ مجموعة خطب سعد باشا الحديثة مزينة بالصور والرسوم

٢٠ ديوان الفجر الاول نظم خليل افندي شيبوب

٨ « الهجو لأحد الشعراء

٥ « البدويات جزآن نظمه محمد بدوي عبد

٥ رواية فاتنة الامبراطور فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا

٥ « عمر وجميله أو في ربا لبنان مزينة بالصور

٤ « ذات الخدر بقلم المرحوم سعيد البستاني

٥ « في سبيل الله والقيصر

٥ كتاب تهذيب النفس بقلم فؤاد صروف

١٠ مشاهد العالم الجديد وهي رحلة الى الولايات المتحدة بقلم فؤاد صروف

١٠ عامان في عمان بقلم خير الدين الزركلي

٢٥ جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام لعبد الله بن حميد بن سلوم سالمي

٥ مناظرات الاناشيد الوطنية لمنصور عوض

٢ الداء والشفاء قصيدتان للمرحوم سليمان البستاني